أَزْمَةُ الْعَالَمِ الْحَدِيثِ

الشيخ عبد الواحد يحيى



تَنوِيه

تعمل ترجمات 'تراث واحد One Tradition' على نقل آداب الحضارات العريقة فى الشرق والغرب إلى اللسان العربى، للذين تسمح ذائقتهم بالاستمتاع بأعمال الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى، وغيرهما من حكماء العالم العربى والإسلامى، ويجدون سعادتهم فى قراءتها، وقد حضَّنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والحكمة فقال: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"، وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم: "الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا".

وتعتبر هذه الأعمال التى نقدمها مفتاحًا لفهم الحضارات الهندوسية والطاوية والبوذية واليونانية القديمة، من حيث جوهرها الذى تجلى به الله تعالى عليها جميعًا.

ولعل ما يُضفى هذه الأهمية الكبيرة على كتب هذه المدرسة أنها تتناول بشكل أساسى موضوعات خمسة، هى علم الحقيقة أو ما وراء الطبيعة، والعقل المُلهَم، والتصوف المعرفى، والأديان مِن حولنا، ومشكلات العالم الحديث.

وهذه الأفكار والموضوعات بمركزيتها تستحق أن تخرج إلى اللسان العربى فى ترجمات شتى، لما قد يحمله ذلك من إيضاح وتفسير لها، وعونًا للقارئ على فَهم ما صَعُبَ منها.

ونأمل بترجمتنا تلك أن نكون قد نقلناها إلى مهدها القديم، وحاضنتها الأولى وهى اللغة العربية التى ألهمت أجيالًا من الأولياء والعارفين على مدار قرون عدة.

أخيرًا، ورغم ما بذلناه من جهد وعناية فى مراجعة نصوص هذه الكتب، إلا أننا نلتمس مقدَّمًا من القارئ الكريم العذرَ فى النزر مِن الخطإ الذى قد يكون تفلَّت منَّا سهوًا، فصادفه هنا أو هناك بين صفحاتها.

المحتويات

تمهيد

عندما كتبنا كتاب 'شرق وغرب' منذ سنوات قليلة كنا نظن أننا قد قلنا كل ما كان يحسن قوله، على الأقل آنذاك، عن الأمور التى أثيرت فى ذلك الكتاب. إلا إن الأحداث التى تفاقمت منذ ذلك الحين قد تتابعت بسرعة مطردة. ولم يكن من شأن ذلك أن يجعل من الضرورى أن نغير كلمة واحدة مما كتبناه آنذاك، ولكن تلك الأحداث قد أمدتنا بفرصة لإضافة تفسيرات معينة، وإثارة وجهات نظر لم نكن نشعر بالحاجة للتركيز عليها فى بادئ الأمر. وحيث إن تلك التفسيرات قد أصبحت ضروريةً نتيجة استشراء بعض الاضطرابات بشكل أكثر عدوانية وإصرارًا، والتى حاولنا تقويمها سلفا، فقد بدا لنا من الأحكم أن نعيد تقديم الأمور مرة أخرى فى منظورها الحقيقى، فى حين نظل كما نحن بعيدين عن الصراع. وهناك عدة اعتبارات فى هذا الصدد تنتمى فى معظمها إلى مسائل أولية للغاية، وقد بدت غريبة تماما فى أعين معظم معاصرينا حتى إننا نشعر بضرورة العودة إليها مرة بعد أخرى، وتقديمها من جوانبها المختلفة كلما سنحت الظروف، ونشرح النقاط التى تنشأ منها المصاعب بتوسع أكثر حتى تصبح مفهومة فى عمومها، إذ لم يكن تصور الحاجة إلى شرحها ممكنًا منذ بضع سنوات.

ويستلزم عنوان الكتاب الحالى شرحا مبدئيًا لفهم مغزاه حتى نتجنب سوء التأويل. فكثير من الناس لم يعودوا يشكُّون فى إمكان حدوث أزمة عالمية بالمعنى المقبول تماما للكلمة، وهذا فى ذاته علامة على تغيرٍ ملحوظٍ فى النظرة العامة وهو نتيجةً لمجرد قوة الأحداث التى جعلت أوهاما معينة تبدأ فى التلاشى، ولا نملك إزاء ذلك إلا السرور لذلك التغير بما هو عليه، فهو على كل حال ظاهرة حسنة، وعلامة على أن تعديل العقلية المعاصرة لازال أمرًا ممكنًا، ويبدو فى ذلك كقبسٍ من ضياءٍ فى معترك الفوضى الضاربة فى الحاضر. وعلى سبيل المثال فإن الإيمان بوجود 'تقدم' لا ينتهى والتى كانت بمثابة عقيدة لا تمس ولا توضع موضع الجدل حتى وقت قريب لم تعد منتشرةً كما كانت، وأصبح هناك من يستوعبون ولو بطريقة ضبابية مضطربة أن مدنية الغرب قد لا تستمر فى التطور فى نفس

الاتجاه على الدوام، ولكن قد يأتى عليها يومٌ لابد لها فيه من أن تتوقف، أو أن تندفع بكليتها فى كارثةٍ من نوعٍ ما. وهؤلاء الأشخاص قد لا يتبينون مكمن الخطر بوضوح حيث إن مخاوفهم الوهمية التافهة التى يعربون عنها أحيانا برهان كاف على أن عقولهم لا زالت تحتفظ بكمٍّ من الأخطاء، ولكن مجرد معرفتهم بأن هناك خطرًا هى فى حد ذاتها أمرٌ ذو بال، حتى لو كان ذلك توجسًا لا فهمًا، وهناك أمرٌ آخر أيضا هو أنهم يستطيعون استيعاب أن هذه الحضارة التى افتُتِن بها المحدثون لا تحتل مكانةً مرموقةً فى تاريخ العالم، ويمكن ببساطة أن تلقى نفس المصير الذى لقيته حضاراتٌ كثيرةٌ غيرها وقد اختفت فى أزمنة غابرة، وترك بعضها آثارا هَزيلة لا تلفت النظر، ناهيك عن هُزال المعرفة المتحصلة منها.

ونتيجة لهذا فعندما يقال إن العالم الحديث يعانى أزمة فإن ذلك يُفهم عادة على أن العالم قد وصل إلى مرحلة حرجة، أو أن تحولا كاملا على وشك أن يجتاحه، وأن تغير الاتجاه سيتلو ذلك لا محالة، سواء أكان ذلك طوعًا أم كرهًا، وسواء أكان فجأةً أم بالتدريج، وسواء أكان على شكل كارثة أم غير ذلك، فإن علينا أن ننتظر لنرى. واستخدام مفهوم 'أزمة *crise*' هو استخدام مشروع تمامًا، والحق أنه يتفق مع وجهة نظرنا جزئيًّا فقط، حيث إنها بالنسبة لنا أكثر عمومية، ففى تصورنا أن العصر الحديث بكليته فى حالة أزمة، ولذلك كان عنوان كتابنا 'أزمة العالم الحديث'. ويبدو أن الأزمة قد قاربت نهايتها، ومن شأن هذا أن يوحى بالشك فى سلامة الأمور الجارية منذ عدة قرون، إلا أن نتائج تلك الأحوال التى تؤدى إلى الأزمة لم تكن أبدا بالوضوح التى هى عليه الآن. وهذا أيضا هو السبب فى السرعة المتزايدة التى تتبدى بها الأمور والمظاهر الجديدة، وحالةٌ كهذه لابد وأن تستمر لوقت أطول بعض الشىء، ولكن ليس إلى ما لا نهاية، وحتى ونحن نرفض تحديد مدى زمنى لتلك النهاية فإنه يبدو للمرء أن الأمور لا يمكن أن تستمر طويلا على المنوال نفسه.

وتضمر كلمة 'أزمة' أيضا بعض الدلالات التى تجعل منها اصطلاحا أكثر مناسبة لما ننتوى التعبير عنه، واشتقاقها الذى فُقد فى عامية الاستخدام الحالية لو أردنا استعادة المعنى الكامل الأصلى للكلمة بما يجعل منها مرادفا لكلمتى ' الحكم *Judgement*' و 'التمييز *Discrimination*'. والمرحلة التى يصح أن توصف بأنها 'حرجة' فى أى ترتيب كان للأمور

هى المرحلة التى تؤدى إلى حل مناسب أو غير مناسب، وبمعنى آخر هى المرحلة التى تنحرف فيها الأمور إلى أحسن أو إلى أسوإ، وهى إذن المرحلة التى يمكن فيها إصدار الحكم على النتائج المتحصلة، ويمكن فيها وزن العناصر المؤيدة والمناوئة، ثم الحكم على النتائج سلباً أو إيجاباً ومن ثم نرى فى أى اتجاه سيندفع البندول فى النهاية. ولسنا نهدف بالطبع عندما نقدم تصنيفا أن يكون كامل الأوصاف، حيث إن ذلك سابق لأوانه وأن الأزمة لم تنته بعد، ولربما استحال أيضا تحديد موعد انتهائها والكيفية التى ستنتهى بها. ومن الأفضل دائما أن نرفض التكهن بما لا يمكن تأسيسه على أرضية مفهومة للجميع فيساء تفسيره، مما يغذى الفوضى ولا يحلها. وجلُّ ما يمكن أن نقترحه حاليا وبقدر ما توفر لدينا من وسائل أن نتوجه لأولئك القادرين على فهم النتائج التى تبدو الآن جليةً للعيان. ونحن إذ نفعل ذلك نمهد الأرض ولو بشكل جزئى وغير مباشر لأولئك الذين لابد أنهم سيلعبون دورهم فى 'الحكم' والذى سيتبعه عصر جديد فى تاريخ البشرية.

ولا شك أن بعض العبارات التى قيلت توا قد أيقظت فى أذهان البعض ما يسمى 'يوم الساعة' أو 'القارعة'، وهذا صحيح سواء أكان ذلك بشكل حرفى أم رمزى أو كلاهما معا، حيث إن المفهومين فى الواقع غير مقصورين على الحرفية أو الرمزية وهذا أمر قليل الشأن فى سياقنا الحالى 'هنا والآن'، ولا يستلزم تفسيرا مسهبا لهذه النقطة. وعلى كل فإن الإشارة 'إلى وزن العناصر المؤيدة والمناوئة' والحكم على النتائج سلبا أو إيجابا لابد أن يوحى بالتقسيم بين 'المختارين والملعونين' فى طائفتين يظلان هكذا إلى الأبد. وحتى لو كان ذلك على سبيل الاستعارة فقط، فلابد أن يعترف المرء بأن ذلك صحيح، وقائم على أساس متين، ومتسق مع طبيعة الأشياء، وهذه نقطة تستدعى بعض التفسير.

وليس من قبيل الصدفة أن كثيرا من الناس تتلبسهم فكرة 'نهاية العالم'، ويمكن أن يكون ذلك باعثا على الأسى من بعض النواحى، حيث إن السفَهَ الذى يمكن أن تصل إليه هذه الفكرة حينما يجرى تحريف فهمها، وربطها بفكرة المسيح المنتظر والابتذال الذى تتخذه نتيجة ذلك فى دوائر معينة، وكلها شواهد على خلل الاتزان الفكرى لزماننا من شأنه أن يزيد الخلل فى ذلك الاتزان، ليصل إلى مدى من سيطرة فكرة 'نهاية العالم' على القرائح، حتى يصبح من المستحيل التجاوز وصرف النظر عن أمر بهذه الخطورة. ولا شك أن

السلوك الأقوم حين تغشى المرء أمور من ذلك النوع أن يستبعدها دون تردد، باعتبارها 'أخطاء' أو 'أوهام' غير ذات أهمية، إلا أننا نضع فى اعتبارنا أنها لو كانت أخطاء بالفعل فمن الأفضل استنكارها، والعمل على اكتشاف الأسباب التى أدت إليها، ونصل إلى شىء من الحقيقة المحرَّفة التى تحتوى عليها، ففى حين أن الأخطاء توجد وجودا سلبيا ونسبيا فإن الأخطاء المطلقة لا وجود لها، وهى بالتالى عبارات جوفاء. وإذا نظرنا إلى الأمر من هذا الطريق فمن السهل رؤية أن الاشتغال 'بنهاية العالم' هو أمر لصيق بحال القلق الفكرى العام، والذى نعيشه فى أيامنا هذه على توجس النهاية وهى وشيكة فى الواقع، وتعمل بلا ضابط على عقول بعض الناس، ومن الطبيعى أن تنبثق منها صور عقلية جامحة تتجسد بفجاجة، وتتخذ من حيث مظهرها الخارجى ذلك السفه الذى نوهنا عنه. وليس هذا التفسير عذرا لارتكاب ذلك السفه حتى للذين يقعون فى ذلك الخطإ بلا وعى، فلو عذرناهم نتيجة ميلهم إليه فى الحالة العقلية التى ليسوا مسئولين عنها فلن يكون ذلك بمثابة عذر للخطإ ذاته. ومن ناحيتنا لا يمكن بالتأكيد لومنا بالاستغراق المبالغ فيه فى فحص الظواهر 'الدينية الزائفة' التى تنتاب العالم المعاصر، بأكثر من استغراقنا فى فحص الأخطاء الحديثة عموما. والحق أننا نعلم أن هناك من يلومنا على قلة الصبر، وربما كان من شأن ما يقال هنا أن يجعلهم أكثر تفهما لموقفنا تجاه هذه الأمور، وهو موقف الالتزام الدائم بوجهة النظر الوحيدة التى تهمنا، وهى الحقيقة غير المنحازة وغير المغرضة.

ولكن ليس هذا مجرد تفسير نفسانى لفكرة 'نهاية العالم' وظواهرها السائدة، وبالرغم من دقتها فى مستواها، إلا أنه لا يمكن قبولها بموجب تلك المظاهر فحسب، كما لا يمكن الخضوع لأحد تلك الأوهام التى انتهزنا كافة الفرص لإدانتها. وكما أسلفنا القول فإن هناك من يشعر شعورا مبهما بأن أمرا ما على وشك الوصول إلى نهايته، دون أن يكونوا قادرين على تعريف طبيعته ومدى تأثير التغير الذى يتنبئون به بالضبط، ومن المستحيل إنكار أن هذا الشعور قائم على الحقيقة حتى لو كانت غامضة ومعرضة للتهافت بتفسيرات زائفة أو تخيلات منحرفة، ومهما كانت طبيعة تلك النهاية فإن الأزمة التى ستؤدى إليها جلية بما يكفى، وهناك فيض من العلامات غير المبهمة التى يسهل فهمها، وكلها تشير بإجماع إلى نفس الاستنتاج. وهذه النهاية بلا شك، ليست نهاية العالم بالمعنى الكامل كما يحلو للبعض

تفسيرها، ولكنها على الأقل نهاية عالم ما وإذا كان ذلك العالم الذى سينتهى هو الحضارة الغربية فى شكلها الحالى فمن المفهوم أن أولئك الذين تعودوا على ألا يروا سواها ويعتبرون أنها الحضارة لا كذب سيميلون إلى الاعتقاد بأن كل شىء سينتهى معها، وأن اختفاءها سيكون يقينا هو 'نهاية العالم'.

ويمكن القول إذن كى نختزل المسألة إلى حجمها الطبيعى أننا تقترب واقعيا من نهاية عالم ما، أو القول بأن نهاية حقبة أو دورة تاريخ قد تتفق تماما مع دورة كونية وفقا لما جاء فى تعاليم المذاهب التراثية فى هذا الشأن. وقد كان هناك بالفعل كثيرا من الأحداث من هذا النوع فى الماضى، وسوف يأتى مثلها فى المستقبل أيضا، وهذه الأحداث ذات أهمية متفاوتة من حيث هل هى نهاية فترة طالت أم قصُرت؟ وهل تؤثر على البشر جميعا أم أن تأثيرها قاصرعلى مجرد مكوِّن أو آخر من البشر؟ أى جنس معين أو شعب معين فحسب، ومن المتوقع أن تطول نتائج التغير المتوقع العالم بأسره تقريباً فى حالته الحالية مهما كان الشكل الذى ستتخذه تلك النهاية، ولن نحاول من جهتنا تحديد هذا الشكل. وعلى العموم فإن القوانين التى تحكم مثل هذه الأحداث تنطبق بشكل استعارى على كل المستويات، فما هو صحيح فى فكرة 'نهاية العالم' فى المعنى الأكمل الذى يمكن أن يُفهم منها أنها تُحَمَلُ عادة على أنها نهاية العالم الأرضى، وهو صحيح أيضا على نطاق صغير لعالم معين فى حدود معنى ضيق للكلمة.

وهذه الملاحظات المبدئية تجعل من الأسهل فهم القضايا التى سنتناولها. ولقد أشرنا فى بعض أعمالنا السالفة إلى مسألة 'القوانين الدورية'، وربما يصعب طرحها طرحا كاملا فى شكل يناسب العقل الغربى، ولكن المرء لابد وأن يحصِّل قدرًا من البيانات عن الموضوع حتى يقدِّر الطبيعة الحقيقية للعصر الحالى، ويرى موقعه الصحيح فى مجمل تاريخ العالم. وسوف نبدأ إذن ببيان أن سمات هذا العصر المميزة تناظر فى الواقع نفس سمات الفترة الدورية التى تحدثت عنها النظريات التراثية من وقت بعيد وسوف يتبين أن ما يبدو شاذا وفوضويًّا من وجهة نظر ما هو عنصر ضرورى فى نظام أوسع، وأنه نتيجة محتومة للقوانين التى تحكم كافة التجليات. ولنبين بوضوح قاطع أنه ليس هناك ما يدعو إلى الاستسلام بسلبية للفوضى والغموض اللذان يسودان فى هذه اللحظة، ولو كان الأمر هكذا لما تزحزحنا

عن الصمت ولكن علينا أن نجاهد بقدر الإمكان لإعداد الطريق للخروج من هذا 'العصر المظلم'، فهناك علامات كثيرة على قرب نهايته. وهذا أيضا هو جزء من النظام المقدر للأمور، فالاتزان هو محصلة نوعين متضادين من الفعل، فإذا توقف أحدهما عن العمل، فلن يستعاد التوازن إطلاقًا، وسوف يختفى العالم تمامًا، إلا أن تحقق هذا الاحتمال غير قائم نظرا لأن طرفى النزاع لا معنى ولا وجود لأحدهما دون الآخر، وأيا ما كانت المظاهر فعلينا أن نتأكد من أن كافة اللاتوازنات الجزئية والعابرة تسهم فى النهاية فى تحقيق الاتزان الكلى.

1. العصر المظلم

تقول تعاليم المذهب الهندوسى أن الدورة الإنسانية التى نطلق عليها مانفانتارا *Manvantara* تنقسم إلى أربع فترات، وتميزها مراحل عدة تصبح فيها الروحية الأولانية أكثر غموضا فأكثر، وهذه المراحل هى ذات المراحل التى أطلق عليها التراث الغربى القديم صفات العصور الذهبية والفضية والبرونزية والحديدية. ونحن الآن فى العصر الرابع، 'العصر المظلم كالى يووجا *Kali Yuga*'، ونحن نعيشه كما قيل منذ أكثر من ستة آلاف عام مضت، أى منذ زمن يسبق كل ما يعرفه التاريخ 'الكلاسيكى'، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحقائق التى كانت فى متناول الجميع أكثر خفاءً وأكثر بعدًا عن التناول، وقد صار الذين يعرفونها أقل عددا، وبالرغم من أن كنوز الحكمة 'الفوقية' أى فوق الإنسانية التى كانت قبل كل العصور لا يمكن أن تُفقد تماما، ولكنها أصبحت مغلفة بحجبٍ تخفيها عن أعين الناس، وتجعل اكتشافها أمرًا بالغ الصعوبة. ولذا نجد فى كل مكان موضوعًا واحدا مفقودا يظهر تحت رموز مختلفة حسب ظواهر الأمور بالنسبة إلى العالم الخارجى على الأقل، وأن على أولئك الذين يطمحون إلى المعرفة الحقيقية أن يُعيدوا اكتشافه، ولكن يقال إن ما خفى هكذا سيبدو للعيان فى نهاية الدورة، والتى ستتزامن مع بداية دورة جديدة نظرا للتواصل الذى يربط كل شىء.

ولا شك فى أن سؤالا سيُطرح عن لماذا تتبع التطورات الدورية هذا النظام من الأعلى إلى الأسفل؟ وهو اتجاه سيُفهم على الفور بأنه مناقض تماما لفكرة التطور كما يراها المحدثون، والسبب هو أن تطور أية ظاهرة يعنى ابتعادا تدريجيا عن المبدإ الذى بدأت منه،

وبدءًا من أعلى نقطة، ولا مناص من اتجاهها إلى أسفل كما هى حال الأجسام الثقيلة، وتتزايد سرعة حركتها حتى تبلغ نقطة تصطدم بها وتتوقف عندها. ويمكن أن توصف تلك السقطة بأنها تجسد مطرد، حيث إن التعبير عن المبدإ هو فى إطار الروحية البحت، ونحن نقول التعبير وليس المبدأ ذاته، وأن المبدأ ذاته هو فيما وراء كل تناول، ولا يمكن وصفه بأى اصطلاح يوحى بوجود عكس مقابل له. زد على ذلك أن الكلمات التى على شاكلة 'روح' و'مادة'، والتى نستعيرها هنا من الاصطلاح الغربى على سبيل التيسير ليس لها عندنا إلا قيمة رمزية، ويمكن أن تستخدم لتناسب السؤال المطروح فى كل الأحوال شريطة استبعاد التفسيرات الخاصة التى أضفتها عليها الفلسفة الحديثة، والتى لا تعدو 'روحانيتها' و'ماديتها' إلا شكلين متكاملين كل منهما يشير نحو الآخر، ويمكن أن يتغاضى عن كليهما من رغب فى فهم ما وراء وجهات النظر العارضة تلك، ولكن حيث إننا لن نلجأ لاستخدام الميتافيزيقا البحت هنا، وقد اتَّخذنا كافة الاحتياطات اللازمة لتجنب الغموض، ولو أن المبدأ الجوهرى لم يغرب عن النظر فقد نقبل استخدام اصطلاحات تسهم رغم قصورها فى جعل الأمور أسهل فهمًا طالما لم يؤد ذلك إلى تشويه ما يُفهم منها.

وما قيل توا عن تطور التجليات يعطى صورة دقيقة حينما يُنظر إليه فى كليته، ولكنه فى الوقت نفسه بالغ التبسيط والثبات بحيث يوحى بفكرة التطور على خط مستقيم وفى اتجاه واحد فقط دون تأرجح، فى حين أن الواقع أكثر تركيبا من ذلك. وكما قلنا سلفًا فإن هناك توجهان متضادان لابد من البحث عنهما فى كل شىء، أحدهما هابط والآخر صاعد، أو إذا ما رغبنا فى طرح تصور آخر أحدهما فى جذب مركزى طارد عن المركز والآخر يعود فى جذب مركزى نحو المركز، وتجلى الظاهرة من سيطرة أحدهما أو الآخر على مرحلتين متكاملتين، أحدهما تبتعد عن المبدإ والأخرى تعود إليه، وهما مرحلتان يجرى مقارنتهما على المستوى الرمزى بدقات القلب أو عملية التنفس. ورغم أن هاتين المرحلتين عادة ما تتصفان بالتتابع فإن التوجهين اللذين تتناظران معهما يعملان متزامنين معًا رغم اختلاف التناسبات بينهم، ويحدث أحيانا حين يبدو أن التوجه إلى أسفل فى حال هيمنة على مسار العالم أن تتدخل قوة خاصة لتقوية التوجه الآخر، وبحيث تستعيد بذلك بعض الاتزان على الأقل بشكل نسبى، وحسبما تسمح به أحوال اللحظة، وهذا من شأنه أن يسبب

تعديلا جزئيًّا، يبدو منه أن السقطة قد كُبِحَتْ أو أنها قد تعادلت مؤقتا[1].

ومن الواضح أن هذه المعطيات التراثية التى لا نملك إلا أن نذكرها باختصار فى هذا السياق تفتح الطريق إلى مفاهيم أعمق وأوسع، ومختلفة تماما عن المحاولات العديدة التى شاعت بين الكتّاب المحدثين عن ’ فلسفة التاريخ‘، إلا أننا لا ننتوى حاليا أن نعود إلى أصل الدورة الحالية، أو حتى إلى بدايات كالى يووجا، ولكننا سنقتصر بصورة مباشرة على الحديث عنها فى مراحلها الأخيرة. والحق أن من الممكن تمييز كل دورة من الدورات الكبرى بحيث تبدو فيها المراحل الثانوية التى تحتوى بدورها على تقسيمات أدق، وحيث إن كل جزء منها مناظر بطريقته الخاصة للكل فكل من هذه التقسيمات تعيد تصوير المسار العام للدورة الكبرى التى هى من منتجاتها، ولكن التحرى الكامل لكل الطرق التى ينطبق بها القانون على الحالات الخاصة سيحملنا إلى أبعد من حدود الدراسة الحالية. وسوف نختم هذه الملاحظات المبدئية بذكر حقبة أو حقبتين معينتين مر بهما الجنس البشرى مؤخرا، أى إنهما فى الواقع فى إطار الحقبة التى تسمى عادة ’تاريخية‘ وهى فى الحقيقة الحقبة الوحيدة المتاحة لانتباه التاريخ العادى، أو بالأحرى التاريخ ’الدنيوى‘، وسوف يقودنا ذلك مباشرة إلى موضوع دراستنا هذه، حيث إن المراحل الحرجة الأخيرة منهما ليست إلا ما سمى بالعصر الحديث.

والأمر الغريب الذى يبدو أنه لم يلفت الانتباه الصحيح أبدًا هو أن الحقبة ’التاريخية‘ بالمعنى الذى أشرنا إليه لتونا تعود بالضبط إلى القرن السادس قبل العصر المسيحى، كما لو كان هناك حاجزًا فى الزمان لا يمكن تجاوزه بكل وسائل البحث المعتاد المتاحة. والواقع أن هناك تأريخا منضبطا منذ بداية هذه الحقبة وما تلاها، أما ما حدث قبل ذلك فلا تجد إلا تقريبيات غامضة، كما أن التواريخ المقترحة للحدث ذاته قد تتنائى بعدة قرون عنه. وذلك واضح للعيان حتى فى تأريخهم للبلاد التى نمتلك عن تاريخها أكثر من مجرد بقايا شذرات مثل مصر على سبيل المثال، ولكن ربما كان ما يثير الدهشة أن بلادا استثنائية ومتميزة

1 وهى على صلة بوظيفة ’الحفظ الربانى‘ الذى يمثلها *فيشنو* فى المذهب الهندوسى، ويمثلها بشكل أخص مذهب *الآفاتارات* أى ’الأولياء والقديسين‘ من تجليات المبدإ الربانى فى العالم المتجسد، وهو مذهب لا يسعنا طرحه فى هذا المقام.

مثل الصين، والتى تمتلك حوليات تتعلق بفتراتٍ سحيقة مؤرخةً بالرصد الفلكى الذى لا يترك مجالا للشك، فإن المؤرخين المحدثين يصنفونها بأنها حقب ' أسطورية' كما لو أنهم وجدوا فيها منطقة لا حق لهم فى اليقين تجاهها، والتى لا يسمحون لأنفسهم حتى بالوصول فيها إلى أى يقين. وما يُدعى بالعصور 'الأثرية الكلاسيكية' إذن هى أثرية نسبية للغاية، بل هى حتى أقرب إلى العصور الحديثة منهم إلى العصر الكلاسيكى، حيث إنها لا تمتد حتى لمنتصف دورة كالى يوجا التى تقدر حسب المذهب الهندى بمعشار مانفانتارا وهذا مؤشر كاف على قيمة الطريقة التى يغبط بها المحدثون أنفسهم على مدى معارفهم التاريخية.

ولا شك فى أنهم سيحاولون تبرير أنفسهم بأن كل ذلك يتعلق بحقب 'أسطورية'، ولذلك لا يستحق الاعتبار ولكن هذا الرد فى ذاته اعتراف بالجهل ونقص الفهم، ولا يفسره إلا احتقارهم للتراث، فالمنظور الحديث تحديدًا هو بالفعل مساو للمنظور اللاتراثى كما سنبين فيما بعد.

ففى القرن السادس قبل الميلاد اعترت كل الشعوب تقريبا حالات تغير جسيمة لسبب أو آخر، وهى تغيرات اختلفت فى سماتها بين بلد وآخر. وكان التغير فى بعض الحالات يتعلق بتلاؤم التراث مع ظروف غير التى سبقته، وقد جرى التغير بمعنى أصولى صرف. وهذا ما حدث فى الصين مثلا حين انقسم التراث الذى بدأ موحدًا إلى شقين متمايزين هما الطاوية وكانت قاصرة على صفوة تتدارس الميتافيزيقا والعلوم التراثية ذات الطبيعة الحدسية، والكونفوشية التى كانت للجميع بلا تمييز، وكان مجالها فى التطبيقات العملية والاجتماعية بشكل رئيس. ويبدو أنه قد حدث بين الفرس أيضا تلاؤم لمذهب المزدكية، فقد كانت هذه الحقبة هى التى عاش فيها زرادشت الأخير[2]، وفى الهند حدث فى نفس الفترة أن قامت البوذية[3] والتى أيا كانت طبيعتها الأصلية، فقد أدت إلى ثورة على

---

2 يجب مراعاة أن اسم 'زرادشت' لا يمثل شخصا معينا فى الحقيقة، ولكنه وظيفة تنبؤية وتشريعية معا، وقد كان هناك كثير ممن اكتسب الاسم نفسه، وعاشوا فى فترات شديدة الاختلاف ومن الممكن أن تكون وظيفة ذات طبيعة جمعية، مثل التى كانت لفياسا فى الهند أو لتحوت أو هيرميس فى مصر، وتمثل أعمال كل الطائفة الكهنوتية.

3 وليس موضوع البوذية بالبساطة التى قد يوحى بها هذا العرض المختصر، ومن المهم أن نلاحظ أنه بالرغم من أن الهندوس فيما يتصل بتراثهم قد أدانوا البوذية على الدوام، ولكن ليس هذا موقفهم من بوذا ذاته والذى يكن له الكثيرون منهم تبجيلا عظيما، والبعض يذهب حتى إلى اعتباره 'الأفاتارا التاسع'، أما عن البوذية التى نراها اليوم فيجب

الروح التراثية، وتمادت إلى نفى أية سلطة، ونتج عنها فى الهند فوضى حقيقية، وهى بالمعنى الاشتقاقى ’غياب المبدإ‘ سواء من الناحية الفكرية أو من الناحية الاجتماعية. وقد بدا غريبا أنه ليس فى الهند آثار سابقة لهذا التاريخ، وقد حاول المستشرقون الذين كان همهم إرجاع كل شىء إلى البوذية التى يبالغون فى أهميتها، أن يجعلوا من هذه الحقيقة سندا لصالح ميولهم الفردية للبحث فى البوذية عن أصول كل شىء فى الهند. وتفسير الظاهرة فى الواقع بسيط للغاية وهو أن كافة الإنشاءات السابقة لهذه الفترة كانت من الخشب، وقد اختفت ولم تترك أثرًا[4]، ولكن ما هو حقيقى، هو أن تحولا كهذا فى أسلوب الإنشاء لابد وأن يكون استجابة لتعديل عميق فى الأحوال العامة التى حكمت حياة الشعب الهندى.

وإذا نحن اتجهنا غربًا لرأينا أن هذه الفترة كانت هى حقبة السبى البابلى لليهود، ولربما كان من أكثر الأمور إدهاشًا فى تلك الأحداث أن مجرد مرور سبعين عاما كانت كافية لكى ينسى اليهود أبجدية لغتهم حتى إنهم اضطروا بعد ذلك إلى إعادة جمع كتبهم المقدسة بأبجدية مختلفة عن تلك التى كانت مستخدمة حتى ذلك الحين، ويمكن أن نروى كثيرًا من الأحداث الأخرى التى تنتمى تقريبًا إلى الفترة ذاتها، ولكننا سنذكر فقط أن هذه الفترة بالنسبة إلى روما كانت بداية الحقبة التاريخية التى تلت حقبة الملوك ’الأسطورية‘، ومن المعروف أيضا بشكل مبهم أنه كان هناك تحركاتٌ مهمة فى الشعوب الكلتية فى ذات الفترة، وسننتقل مباشرة دون أن نسهب فى هذه الأمور إلى ما كان يجرى فى اليونان. فقد كان القرن السادس هو بداية ما يدعى ’الحضارة الكلاسيكية‘ التى أصبحت هى الوحيدة صاحبة الحق فى صفة ’التاريخية‘ حسب منظور المحدثين، وكل ما سبقها غير معروف على وجه كافٍ، حتى إنها عولجت باعتبارها ’أساطير‘، ذلك رغم أن الاكتشافات الحديثة لا تترك مجالا للشك فى وجود حضارة حقيقية للغاية، ولدينا أسبابٌ

الحرص فى التعامل معها، حيث يجب التمييز بين شكلى *ماهايانا* و*هينايانا*، أى بين ’الطريق الواسع‘ و’طريق الخاصة‘، وعموما نستطيع القول بأن البوذية خارج الهند تختلف كثيرا عنها فى شكلها الهندى الأصلى، والذى بدأ فى الزوال بسرعة بعد وفاة الملك آشوكا ثم اختفت بعد ذلك.

4 وهذه الحالة ليست قاصرة على الهند، ولكننا نجدها فى الغرب أيضا، ولهذا السبب ذاته لم يبق من مدن الغال شىء، والذين لا شك فى وجودهم، وقد شهدها شهود معاصرون لها بقيت شهاداتهم، وهنا أيضا انتهز المؤرخون المعاصرون فرصة انعدام الآثار كى يصوروا الغال كمتوحشين يعيشون فى الغابات.

تجعلنا نفترض أن تلك الحضارة اليونانية الأسبق كانت أجدر بالاهتمام فكريا مما تبعها، وأن العلاقة بينهما كانت أشبه بالعلاقة بين العصر الوسيط وأوروبا الحديثة إلى حد ما. ويجب أن نراعى أن الفصل لم يكن تاما كما كان فى المرة الأخيرة، فقد جرى فى الأولى على الأقل تلاؤمٌ تراثىٌّ جزئى وحدث أساسا فى مجال 'الأسرار'، ويجب أن نربط بها مسألة الفيثاغورية، والتى كانت أساسا، إعادة تشييد فى شكل جديد للتراث الأورفى الأولانى، وصلته بعبادة أبوللو القطبى فى دلفى وكانت بدورها ذات نَسَب منتظم غير منقطع، وهو من أقدم ما ظهر من تراث للجنس الإنسانى. ولكن فجأة ظهر شىء فى ذلك الحين لم يكن له نموذج أسبق والذى أدى فيما بعد إلى آثار ضارة على العالم الغربى بكامله ونحن نعنى ذلك الشكل الخاص الذى تسمى 'بالفلسفة' واحتفظ بذلك الاسم حتى الآن وهذه نقطة تستدعى بعض الإسهاب.

والحق أن كلمة 'فلسفة' يمكن أن تُفهم فى حد ذاتها بشكل مشروع تماما، وهو معنى كان ينتمى إليها أصلا بلا شك، وخاصة إذا كان فيثاغورث كما يدعون هو أول من استخدمها، والكلمة لغةً لا تعنى إلا 'حب الحكمة' وهى أولا تصف الميل الأولى المطلوب للوصول إلى الحكمة، ويمكن أن يعنى أيضا الامتداد الطبيعى لهذا المعنى هو البحث الذى ولد من ذلك الميل وهو لا مناص يؤدى إلى المعرفة. وتشير فى وضعها ذلك إلى مرحلة إعداد أولية، أو هى درجة تناظر مستوى أدنى من الحكمة ذاتها، وهى خطوة بما هى عليه نحو الحكمة، وكان الانحراف الذى حدث هو اتخاذ هذه الخطوة الانتقالية نحو الحكمة[5] غاية بحد ذاتها، وجَرَت محاولة استبدال الحكمة بالفلسفة، وهى مسألة تعنى تناسى أو تجاهل الطبيعة الحقيقية للحكمة. وقد نشأ بهذه الطريقة ما يمكن أن يسمى 'الفلسفة الدنيوية' أى حكمة مُدَّعاة تصدر فقط عن الإنسان، وهى إذن من المرتبة العقلية، وقد احتلت موقع الحكمة التراثية الحقة 'فوق الإنسانية' إلا أنه بقى شىء من هذه الحكمة التراثية فى كافة الحضارات القديمة، كما يثبت ذلك دوام ظهور 'الأسراريات' التى تتضح طبيعتها التربوية الروحية *initiatique* بلا خلاف، كما أنه من الصحيح أيضا أن الفلاسفة ذاتهم لهم

---

5 والعلاقة مماثلة تقريبا لما يوجد فى المذهب الطاوى فى الفروق بين 'الإنسان الموهوب' و'الإنسان المتعالى' أو 'الإنسان الحق'.

طبيعتان إحداهما 'برّانيَّة' والأخرى 'جوَّانيَّة'، وتترك الثانية منهما الباب مفتوحا لإمكانية الاتصال بوجهة نظر أعلى، والتى عبَّرت عن نفسها بوضوح فى الواقع بعد عدة قرون من بداية الحضارة اليونانية بين الإسكندريين رغم أن ذلك التعبير كان منقوصا فى بعض الجوانب. ولكى تتشكل الفلسفة الحديثة بما هى عليه فقد كان يلزم أن تبقى 'البرانية' وحدها فقط وتنكر كافة الجوانيات، وهذا بالضبط ما أدت إليه الحركة التى دشنها اليونانيون، والتى قُدِّر لها أن تأخذ بزمام المحدثين. وكان من حظ الميول التى وَجَدت تعبيرا يصوغُها بين اليونانيين أن تُدفَع إلى أقصى تطرف ممكن لها، وتضخمت الأهمية التى أضفيت على التفكير العقلانى أكثر فأكثر لتصل إلى مذهب ' العقلانية'، وهو موقف حديث على الأخص يقول باستنكار كل ما هو فوق عقلانى، وليس حتى الاكتفاء بتجاهله. ولكن لا داعى للاهتمام بهذا الاستطراد الآن فسوف نعود إلى نتائج ذلك التطور فى جزء آخر من هذا الكتاب.

وهناك أمر واحد مما قيل سابقًا له صلة خاصة بوجهة النظر التى نهتم بها حاليا وهو أن بعض أصول العالم الحديث تكمن فى التاريخ 'الكلاسيكى'، وليس العالم الحديث مجحفا تماما فى الادعاء بأن أساسه كامن فى الحضارة اليونانية الرومانية، وأنه استمرار لها. وفى ذات الوقت يجب مراعاة أن الأمر لم يتعلق إلا باستمرارية بعيدة وغير أمينة إلى حد ما، وقد أصبحت بعيدة عن المرتبة الفكرية والروحية الكلاسيكية الأصلية، إذ إن الكلاسيكية القديمة كان فيها بعض الأمور التى تتعلق بالمرتبة الفكرية والروحية، والتى لا مقابل لها عند المحدثين، وعلى كل فهى توجد فى التقويم التدرجى للمعرفة الحقيقية، وتمثل درجتين مختلفتين. ويمكن للمرء أن يتفهم انحطاط الحضارة فى العصر الكلاسيكى التى أدت بالتدريج وبلا انقطاع إلى حالة شبيهة بالتى نراها اليوم، ولكن الواقع أن هذا لم يحدث على هذه الصورة من كل الأوجه، بل تدخلت فترة حرجة أخرى فى حياة الغرب، وهى فترة تلاؤم مثل الفترات التى ذكرناها سلفا.

وقد كانت تلك الفترة هى حقبة ظهور وانتشار المسيحية التى تزامنت من ناحية مع شتات اليهود، ومن ناحية أخرى مع نهاية تطور الحضارة اليونانية الرومانية. ويمكن أن نتجاوز ذكر هذه الأحداث لأنها معروفة عموما أكثر من الأمور التى تحدثنا عنها حتى الآن،

كما أن تزامنهما قد أثار انتباها أكثر انتشارا حتى على أيدى المؤرخين ذوى الآراء بالغة السطحية. ثم إن الانتباه أيضا قد اشتمل على سمات معينة مشتركة بين انحطاط العالم 'الكلاسيكى' وانحطاط العصر الحالى، ويجب أن ننوه دون أن ندفع بالأمور بعيدا إلى أن هناك فى الواقع تشابهات لافتة للانتباه.

وحيث إن 'الفلسفة الدنيوية' الصرفة قد كسبت أرضا، فظهور مبدإ الشك من ناحية والأخلاقية الرواقية والأبيقورية من ناحية أخرى كان كافيا لبيان مدى الانهيار الفكرى الذى حدث. وأصبحت المذاهب المقدسة فى الوقت ذاته أمورا لا يكاد يفقهها أحد، وانحطت نتيجة ثلم الفهم هذا إلى 'وثنية' بالمعنى الحقيقى للكلمة، أى إنها قد أصبحت لا تزيد عن 'خرافات' فقدت معناها العميق، وعاشت من أجل ذاتها كمجرد مظاهر برانية تماما. وقد كان هناك محاولات لمقاومة هذا الانحطاط، فالهللينية ذاتها قد جاهدت لتكتسب زخما جديدا بمعونة العناصر المستعارة من النظريات الشرقية التى استطاعت أن تتواصل معها، ولكن تلك الوسائل قد أمست بلا جدوى وانتهت الحضارة اليونانية الرومانية، وكان على عملية إعادة التلاؤم أن تعتمد على ما يأتى من الخارج، وأن تتحقق بشكل مختلف تماما، وكانت المسيحية هى التى حققت ذلك التحول. ويمكن فى هذا السياق ملاحظة الصلة التى يمكن عقدها من عدة جوانب فى المقارنة بين ذلك الزمن وزمننا نحن، وربما كانت أحد العوامل المسئولة عن 'الماشيحانية' التى نراها اليوم، فبعد فترة مضطربة واكبت الغزوات البربرية التى كانت لازمة لاستكمال انهيار الأنظمة القديمة نشأ نظام جديد لفترة دامت لعدة قرون، وكانت هذه هى فترة العصور الوسطى، والتى كون المحدثون عنها فكرة زائفة نتيجة عدم فهمهم لخصائصها الفكرية، حتى إنهم ينظرون إليها على أنها أبعد عن العصر الكلاسيكى القديم وأكثر غُربة عنه.

ونحن نعتبر أن العصور الوسطى قد بدأت مع حكم شارلمان، وامتدت حتى بداية القرن الرابع عشر، ومنذ ذلك الحين كان عصر انحطاط لا زال مستمرا فى مراحل مختلفة وبزخم متزايد وصولا إلى العصر الحديث. وهذا التاريخ هو البداية الحقيقية للأزمة الحديثة، فهو تاريخ بداية تفسخ عالم المسيحية الذى ارتبطت به الحضارة الغربية بالضرورة طوال العصر الوسيط، وفى ذات الوقت فهو بداية تكون 'الدول الأمم *nation states*'، ونهاية

عصر الإقطاع، والذى كان مرتبطا أشد الارتباط بعالم المسيحية. وأصل العصر الحديث إذن يجب أن يتحرك إلى الوراء قرنين عما يفترضه المؤرخون عموما حيث كانت النهضة والإصلاح نتائج أولية له، وكانت الفترة السابقة لهما هى التى جعلت العصر الحديث بما هو عليه ممكنًا، ولكن بعيدا عن اعتبار ذلك نوعا من التلاؤم فقد كان علامة على سقوط أعمق، أتم القطيعة الكاملة مع الروح التراثية، ففى حين كان الأول قطيعة فى مجال الفنون والعلوم كان الثانى قطيعة فى مجال الدين ذاته، ذلك رغم أن هذا المجال كان هو المجال الأصعب فهما فى هذه القطيعة.

وكما ذكرنا فى مناسبة أسبق فإن ما يُدعى بعصر النهضة أى الميلاد من جديد لم يكن فى الواقع إلا موت كثير من الأمور بحجة العودة إلى الحضارة اليونانية اللاتينية، وهى على ذلك لم تتخذ منها إلا قشورًا بالغة السطحية، حيث إن تلك القشور هى الوحيدة التى كان يمكن أن يُعبَّر عنها فى النصوص المدوَّنة، ولم يكن من شأن ذلك الترميم الناقص إلا أن يكون ذا طبيعة سطحية للغاية، كما أنه كان يعنى استرجاع أشكال من الحياة قد انسحبت منها الحياة الحقيقية منذ قرون خلت. أما بالنسبة إلى العلوم التراثية للعصر الوسيط فقد اختفت كلية بعد عدة ظواهر ختامية قرابة ذلك الزمن، كما لو كانت تراث حضارات سحيقة وقد انتهت بفعل كارثة ما. ومنذ ذلك الحين فما تلاه لم يبق إلا 'الفلسفة الدنيوية' و' العلوم الدنيوية'، والتى تعنى إنكار الفكرِ الحقيقى، وتحددت المعرفة بأدنى مستوياتها، أى الدرس التجريبى والتحليلى منبتا عن المبادئ، وانتشرت بجحافل عريضة غير معرفة من تفاصيل بلا معنى، وتراكمت فرضيات تدمر بعضها بعضًا بلا هوادة، وآراء متشظية لا توصل إلى شىء إلا إلى تلك التطبيقات العملية التى تشكل التميز الأوحد للحضارة الحديثة، وهو تميُّز لا تحسد عليه، فهو الذى يخنق كل مسعى آخر، وهو الذى أضفى على الحضارة الحالية سماتها المادية البحتة وجعل منها وحشية حقيقية.

وهناك حقيقة غريبة أخرى هى الاختفاء السريع الذى حاق بحضارة العصر الوسيط، ففى القرن السابع عشر، فقد الناس كل ما كان معروفا عنه، وحتى آثاره الباقية لم تعد تعنى أى شىء عندهم، سواء أكان ذلك من الناحية الفكرية أم حتى من الناحية الجمالية، وكل هذا برهان دامغ على تغير العقلية العامة. ولن نحاول هنا البحث عن العوامل

معقدة التركيب التى أسهمت فى إحداث تغيير أصولى إلى الدرجة التى يصعب تصور أنه تلقائى دون تدخل إرادة موجِهة، والتى لا بد وأن تبقى طبيعتها ملغزةً محيرة. ويمكن أن نلاحظ فى هذا الصدد بعض الأحوال الغريبة، مثل ما صار فى فترة معينة من شيوع أمور بعينها باعتبارها اكتشافات جديدة فى حين أنها معروفة فى الواقع منذ زمن طويل، ولكنها لم تكن شائعة نظرا لأن مخاطر شيوعها كانت أكبر من مخاطر كتمانها.[6] كما أن من غير المحتمل أن يشيع قبول الأساطير التى تدمغ العصر الوسيط بالكآبة والجهل والبربرية، أو أن التزييف الحقيقى للتاريخ الذى انغمس فيه المحدثون، كان يمكن أن ينجز دون فكرة مسبقة، ولكننا لن نتعقب هذا السؤال بأبعد من ذلك، حيث أنه أيا كانت العمليات التى جرى بها ذلك التلبيس فما يهمنا فى الوقت الحالى هو بيان نتائجه فحسب.

وقد كانت الكلمة التى ارتفعت إلى سُدَّةِ الشرف إبان عصر النهضة، والتى لخصت مقدما برنامج الحضارة الحديثة برمته هى النزعة 'الإنسانية'. فقد انهمك الناس حقا فى اختزال كل شىء إلى أبعاده الإنسانية القحَّة كى يتخلصوا من أى مبدإ ينتمى إلى مستوى أعلى، ويمكن أن نقول بشكل رمزى إنهم انصرفوا عن تأمل السماء حتى يتفرغوا لقهر الأرض، فحتى اليونانيون الذين يدَّعى هؤلاء أنهم يحذون حذوهم لم يخطوا إلى ذلك الدرك حتى فى أسفل فترات انحطاطهم الفكرى، ولم تَبلغ عندهم الاعتبارات النفعية على الأقل تلك المكانة العظمى التى وصلت إليها فى الحضارة الحديثة. و'الإنسانية' قد كانت الشكل الأول لما أصبح 'العلمانية' المعاصرة، وقد انحطت الحضارة الحديثة شيئا فشيئا حتى بلغت أحط ما فى الإنسان نظرا لتوجهها إلى اختزال كل شىء إلى مقدار الإنسان كغاية بذاته، وهدفها لا يزيد كثيرا عن إرضاء الرغبات التى تعيث فى الجانب المادى من طبيعته، وهو هدف خيالى فى حد ذاته إذ أنه يبتكر من الاحتياجات الزائفة أكثر مما يستطيع إرضاءه.

فهل يظل العالم الحديث سادرا فى ذلك الانحدار المميت حتى النهاية أم هل تتدخل فترة تلاؤم جديدة مرة أخرى كما حدث فى حالة الانهيار الإغريقى اللاتينى قبل أن يبلغ

6 وسوف نذكر هنا حالتين فقط كان لهما نتائج من أخطر ما يمكن، أولاهما ادعاء اختراع الطباعة التى عرفها الصينيون قبل العصر المسيحى، وثانيتهما الاكتشاف 'الرسمى' لأمريكا، والتى كان للقارة الأوروبية صلات بها أثناء العصر الوسيط، وهى أكثر كثيرا مما يفترض.

الغرب قاع المتاهة التى يقعقع هابطا إليها؟ وقد يبدو أنه لا حيلة له فى التوقف ليلتقط أنفاسه فى منتصف الطريق حيث إن كل الدلائل المتوفرة من التراث النظرى تشير إلى أننا قد دخلنا فى مرحلة كالى يووجا، وهى آخر وأظلم فترة فى هذا العصر الحالك، وهى حالة التفسُّخ التى لا يمكن الخروج منها إلا بكارثة، حيث لا تحتاج هذه المرحلة إلى مجرد إعادة التلاؤم ولكنها فى حاجة إلى التجديد الكلى بلا مراء. فقد عمَّت الفوضى والاضطراب جميع المجالات، وانطلقت إلى آمادٍ لم يُعرف لها سابقة، حتى إن الغرب يهدد حاليًا بغزو العالم بأكمله، ونعلم علم اليقين أن انتصاره لا يمكن أن يكون إلا انتصار ظاهرى عابر، ولكن هذا هو المدى الذى وصلت إليه الأمور حتى إنها تبدو أسوأ أزمة فى تاريخ الإنسان فى سياق دورته الحالية، ألم نصل إلى ذلك العصر الرهيب الذى أفصحت عنه كتب الهند المقدسة حين تختلط الطبقات، ولا يعود للأسرة وجود؟ ويكفى أن ننظر حولنا حتى نقتنع أن هذه الحال هى حال العالم اليوم، ولكى نرى حولنا فى كل الجهات ذلك الانحطاط العميق الذى يسميه الكتاب المقدس 'شناعة الخراب'. ولا يمكن التهوين من هول الموقف ولابد من رؤيته كما هو دون تفاؤلٍ ولا تشاؤمٍ أيضا، حيث إن الأمر كما ذكرنا أن نهاية عالم قديم هى أيضا بداية عالم جديد.

ويطرح هذا سؤالا هو ما الهدف من حقبة مثل التى نعيشها؟ والحق أنه مهما كانت الظروف التى نحياها غير طبيعية لو نظرنا إليها فى حدِّ ذاتها، إلا أنها لابد وأن تخضع لنظام الأمور العام، وهذا النظام العام ذاته هو حصيلة مجمل الفوضى الذى يتكون منها الزمن الذى نعيشه، وفقا لعبارة من الشرق الأقصى، ومهما كان العصر الحديث مؤلما ومضطربا، فلابد أن يكون له أيضا موقعه المقدر له فى سياق تطور التاريخ الإنسانى، والحق أن مجرد كونه موضوعا لنبوءة المذاهب التراثية هو مؤشر كافٍ على أنه كذلك. وما أسلفناه بخصوص الاتجاه العام لدورة تجلياتٍ تتجه نحو مزيد من المادية، يقدم تفسيرا مباشرا لهذه الحالة، ويبين أن ما هو غير طبيعى ومضطرب من وجهة نظر خاصة ليس غير نتيجة للقانون الكامن فى مستوى أعلى، ووجهة نظر أرحب. وسوف نضيف دون إلحاح أن الانتقال من دورة إلى أخرى لا يحدث إلا فى الظلام، وهذا قانون آخر ذو أهمية عظمى وله تطبيقات

كثيرة، ولهذا السبب ذاته سيحملنا طرحه خارج موضوعنا.[7]

وليس هذا هو كل شيء، فالحقبة الحديثة لابد وأن تناظر تطور عدة إمكانات كامنة فى احتمالات الدورة الحالية منذ أصولها الأولى، وأيا ما كان تدنى مرتبة تلك الإمكانات فى الهيكل الكلى فلا مناص من أن تتجلى فى زمنها المحتوم وفقا للدور الذى كان مقدرا لها. ويمكن أن يقال فى هذا الأمر إن ما كان يميز المرحلة الأخيرة للدورة النهائية وفقا للتراث قد أُهمِل الانتباه إليه، أو أنه أنكِرَ أثناء المراحل السابقة، والحق أن هذا هو ما يمكننا ملاحظته فى الحضارة الحديثة التى لا تعيش إلا بما لم يكن فيه نفع للحضارات الأسبق. وكى نؤكد هذه الحقيقة يكفى ملاحظة كيف كانت رؤية ممثلى التراث الأصلى الأقدم الذى ظل حيا فى الشرق للعلوم الغربية وتطبيقاتها الصناعية. فهذه الأشكال من المعرفة الدنيا لا تساوى شيئا لدى من وصل إلى معرفة أسمى، إلا أنها لابد وأن تتحقق، ولكن هذا لن يحدث إلا عندما نصل إلى مرحلة يختفى فيها الفكر الحقيقى. وهذ البحث القاصر على الجوانب العملية فى أضيق مفاهيمها كان أمرا حتميا، ولكنه لم يكن ليتحقق إلا فى عصر يجرى على نقيض الروحية الأولى، وعلى يد أناس مستغرقين فى الأمور المادية حتى إنهم لا يستطيعون أن يفقهوا شيئا فيما وراءها. وكلما زاد انغماسهم فى استغلال المادة كلما أصبحوا عبيدا لها، وهكذا يحكمون على أنفسهم ببلبال يتفاقم دون ضابط أو هدف، وبشتات وفُرقة تنتهى إلى التحلل النهائى.

وهذه هى حقيقة حال العالم الحديث فى خطوط عريضة تقتصر على الأمور الجوهرية فقط، ولكن لنصرح بوضوح بأن هذا التفسير لا يمكن أن يُتخذ كذريعة، فالمرض الحتمى هو مرض على كل حال، وحتى لو كان الخير ينبع من الشر فهذا لا يغير من الطبيعة الشريرة للشر ذاته، ونحن نستخدم كلمات ’الخير‘ و’الشر‘ هنا حتى نوضح مقصدنا دون أن ننوى التعبير عن أية مسحة أخلاقية. ولابد من أن توجد حالات من الفوضى الجزئية

---

7 ويتمثل هذا القانون حسب الأسرار الأليوسينية فى رمزية حبة القمح التى رأى فيها ’علماء الصنعة‘ وهم الخيميائيون القدماء رمزا لحال ’التفسخ‘ وباللون الأسود، الذى هو علامة على بداية ’العمل العظيم‘، وما يسميه المتنسكون المسيحيون ’ليل الروح المظلم‘ هو تطبيق لنفس القانون على التطور الروحى للكائن فى صعوده إلى حالات أرقى، ومن السهل الإشارة إلى كثير من المشابهات الأخرى.

حيث إنها عناصر ضرورية فى النظام الكلى، ولكنها رغم ذلك حقبة من الفوضى قرينة بالوحشية، والتى رغم أنها نتيجة قوانين طبيعية فهى تمثل انحرافا ونوعا من الخطإ أو الكارثة، أو هى نتيجة جائحة نتجت بدورها عن مسار الأحداث الطبيعى إلا أنها تعتبر ضلالا وشذوذا فى حد ذاتها. والحضارة الحديثة شأنها شأن أى شىء آخر لها أسبابها الضرورية فى الوجود، ولو أنها حقا تمثل نهاية دورة من دورات عصر الإنسان لأمكن للمرء أن يقول إنها ما يجب أن تكون عليه، وإنها أتت فى زمانها ومكانها المقدرين، ولكنها يجب أن تُقَوَّم حسب كلمات الإنجيل التى كثيرا ما ساء فهمها، ويل للعالم من العثرات، فلابد أن تأتى العثرات، ولكن ويل لذلك الإنسان الذى تأتى به العثرة[8].

8 إنجيل متى، 18.

2 التعارض بين الشرق والغرب

إن إحدى السمات الواضحة للعالم الحديث هى الهوة التى نلاحظها بين الشرق والغرب، ورغم أننا قد عالجنا هذه المسألة بتفصيل أوسع فى عمل آخر[9] فلا مناص من العودة إليها هنا لتحديد بعض جوانبها، وكى نزيل بعضًا من سوء الفهم الذى اعتراها، والواقع أنه كان هناك دائمًا كثير من الحضارات المختلفة، وقد تطور كل منها بطريقة طبيعية حسب القابلية الذهنية لشعب أو جنس ما، ولكن الاختلاف لا يعنى التضاد، بل إنه يمكن أن يكون هناك نوعٌ من المضاهاة بين حضاراتٍ ذات أشكالٍ مختلفة، طالما كانت جميعها قائمة على المبادئ الأساسية ذاتها، والتى يشكل ظاهرها تطبيقاتٍ تتنوع حسب الظروف الخاصة لكل منها. وهذه هى حال كافة الحضارات التى توصف بأنها طبيعية أو تراثية وليس هناك تناقض جوهرى فيما بينها، والاختلافات بينها لا تعدو اختلافات سطحية وبرَّانيَّة. ومن جانب آخر فإن الحضارة التى لا تعترف بمبدإ أعلى ولكنها تقوم فقط على إنكار المبادئ هى محرومة من التفاهم المتبادل مع الحضارات الأخرى، فهذا التفاهم لا يأتى إلا مما هو أعلى من الطرفين لو كان يرادُ له أن يكون عميقا ومؤثرا، وهو الأمر الذى تفتقر إليه هذه الحضارة الشاذة. ونحن نرى فى حال العالم اليوم كل الحضارات التى بقيت على إخلاصها للروح التراثية هى حضارات الشرق من ناحية، بينما نجد من ناحية أخرى حضارة منكرة للتراث هى الحضارة الغربية الحديثة.

وهناك حقا من ينكر أن تقسيم العالم إلى شرق وغرب يضاهى أية فروق حقيقية، ولكن يبدو دون أى شك أن ذلك الفارق قائم فى الزمن الحاضر على الأقل. فوجود حضارة غربية مشتركة بين أوروبا وأميريكا هى حقيقة لابد وأن يعترف بها الجميع أيا كانت

9 رينيه جينو، ’شرق وغرب‘، جاليمار.

الآراء حول قيمتها. والمسألة أقل من ذلك بساطة بالنسبة إلى الشرق حيث تشيع فيه حضارات عدة وليس حضارة واحدة فقط، حتى إنها تبرر التعارض بين الشرق والغرب تماما بأن تلك الحضارات تجمعها سمات مشتركة معينة، والتى تميز ما أسميناه بالحضارات التراثية، وأن الحضارة الغربية تفتقد هذه السمات. وذلك راجع إلى أن كل الحضارات الشرقية تراثية بطبيعتها. وكى نطرح فكرة أكثر تحددا عن تلك الحضارات فسوف نكرر هنا ما طرحناه سلفا فى مؤلف آخر عن الأقسام العامة التى تشكلها، والتى هى صحيحة من حيث خطوطها العامة بالرغم من بساطتها بالنسبة إلى الذين يودون الدخول فى التفاصيل، فالحضارة الصينية تمثل الشرق الأقصى، والحضارة الهندوسية تمثل الشرق الأوسط، والحضارة الإسلامية تمثل الشرق الأدنى. ونضيف إلى ذلك أن الحضارة الإسلامية تحتل وضعا وسطا بين الشرق والغرب، وأن لها سمات تقربها من عدة جوانب مع الحضارة الغربية، مثلما كانت فى العصر الوسيط. أما لو أننا وضعنا الحضارة الإسلامية فى مقارنة مع الحضارة الغربية، فسوف نجد أنها تتعارض معها مثلما تتعارض معها الحضارات الشرقية البحتة، والتى تنتمى الحضارة الإسلامية إليها من وجهة النظر هذه.

وتُبرز الملحوظة الأخيرة نقطة مهمة، وهى أنه لم يكن هناك تعارض بين الشرق والغرب طالما كان فى الغرب تراثٌ قديم مثل الشرق، والتعارض له معنى فقط فيما يتصل بالغرب الحديث، فهو تناقضٌ بين عقليتين أكثر من كونه اختلاف بين منطقتين جغرافيتين محددتى المعالم. ففى فترات معينة أقربها إلينا العصر الوسيط كانت العقلية الغربية أوثق قرابة من حيث سماتها الأهم مع العقلية الشرقية عما أصبحت عليه العقلية الغربية الحديثة، فقد كانت الحضارة الغربية أكثر شبها بالحضارات الشرقية مثلما تتشابه الحضارات الشرقية ببعضها بعضًا. وقد حدثت تغيرات جسيمة فى القرون الأخيرة كانت أكثر ضراوة من أى انحراف حدث فيما سبق من فترات التدهور، حيث تطورت إلى مرحلة النكوص الكامل فى مسار النشاط الإنسانى، ولم يحدث هذا التغير إلا فى الغرب وحده. وعندما نتحدث اليوم عن 'عقلية غربية'، فإنها نفس ما نقصد 'بالعقلية الحديثة'، وحيث إن العقلية الأخرى لا زالت توجد فى الشرق فيمكن فى سياق الحديث عن الحال اليوم أن نسميها 'بالعقلية الشرقية'. ويعبر هذان الاصطلاحان إذن عن حقيقة واقعة، وحيث إن إحداهما قد ظهرت

فى الوجود فى التاريخ المتأخر هى الغربية منهما فى الواقع البيّن، فلا ضرورة لذكر شىء عن أصول الأخرى، والتى كانت فيما سلف مشتركة بين الشرق والغرب، فإن أصولها والحق يقال مُندمجة فى أصول الجنس البشرى ذاته، وهى العقلية التى يمكن أن توصف بأنها طبيعية، ولو كان ذلك فقط لكونها ألهمت كافة الحضارات التى نعرفها بالكامل بصورة أو بأخرى، باستثناء واحدة هى الحضارة الغربية الحديثة.

وهناك من لم يتجشموا عناء قراءة كتبنا ورأوا أن من واجبهم أن يلومونا للقول بأن أصول كافة النظريات التراثية كائنة فى الشرق فقط، وأن العصور الغربية القديمة كانت تتلقى تراثها فى كل الفترات من الشرق، ونحن لم نقل مثل هذا أبدا ولم نقل حتى أى أمر آخر يمكن استنتاج ذلك منه، ولسبب بسيط هو أننا نعلم تماما أن هذا غير صحيح. والواقع أن المعطيات التراثية ذاتها تدحض هذه المقولة، والتأكيد الواضح لذلك والذى يرد فى كل سياق هو أن التراث الأولانى للدورة الحالية قد أتى من المنطقة الشمالية القطبية، وفى أزمنة تالية كان هناك تيارات ثانوية عدة تناظر أحقابا مختلفة، وأحد أهم تلك التيارات التى لا زالت آثارها مميزة حتى الآن هى ولا شك تلك التى فاضت من الغرب إلى الشرق. إلا أن زمن ذلك يعود إلى فترات سحيقة القدم تسمى عادة بما 'قبل التاريخ'، والتى لا نهتم بها هنا، ولكن ما نقوله أن التراث الأولانى قد نُقل منذ زمان طويل إلى الشرق بما فيه الأشكال المذهبية التى انبثقت مباشرة منه، وثانيا فإن الروح التراثية الحقيقية بما تعنى فى سياق الأحوال الحاضرة لم يعد لها ممثلون إلا فى الشرق.

ولاستكمال هذا التوضيح علينا أن نفسر ما نقوله باختصار حول بعض الأفكار التى ظهرت فى دوائر معاصرة مختلفة بهدف إحياء 'تراث غربى'. والأهمية الحقيقية الوحيدة لهذه الأفكار هو بيان أن هناك أناسا قد بدأت عقولهم لا ترضى عن الإنكار الحديث للتراث، ويشعرون بالحاجة إلى شىء لا يستطيع هذا العصر أن يقدمه، ويرون أن الهروب من الأزمة الحالية لن يتحقق إلا بطريقة واحدة ألا وهى العودة إلى التراث بشكل أو آخر. ولسوء الحظ فمثل هذه 'التراثاتية' ليست هى المنظور التراثى الحق، فقد لا تكون إلا ميلا أو حنينا غامضا لا يستلزم معرفةً حقيقية، ولسوء الحظ أيضا أن ذلك الحنين فى خضم الاضطراب الفكرى لزماننا يثمر مفاهيم خيالية وتصورات خالية من أى أساس جاد.

وأولئك الذين تأثروا بتلك الدعوى يذهبون إلى حد أنهم يتخيلون تراثا زائفا لم يوجد قط بعد أن لم يهتدوا إلى تراث حقيقى يؤسسون عليه، وتفتقد تخيلاتهم المبادئ شأنها شأن ما يريدون استبداله بها من أوهام، وينعكس الاضطراب الحديث بأكمله فى تلك المحاولات، والنتيجة الوحيدة التى يصلون إليها هى تفاقم خلل الاتزان العام. ومن بين المفاهيم التى من هذا النوع سنشير فقط إلى ما يزعمون أنه 'التراث الغربى' الذى اختلقته بعض العناصر المشتتة من الغيبيين 'الثيوزوفيين' الرامين إلى منافسة 'التراث الشرقى' بتراث لا يقل وهمية عما هم فيه، والذين تناولنا أمورهم فى مؤلف آخر' ونفضل تجاوز هذا الأمر لنتفرغ لعرض نظريات أخرى أكثر جدارة بالانتباه، والتى تبين على الأقل رغبة فى الإشارة إلى مذاهب تراثية كان لها وجود حقيقى.

لقد أشرنا فيما سلف إلى تيار التراث الذى نبع من الغرب ونوهنا إلى أن المراجع القديمة تشير إلى قارة أطلانطيس وموقعها الأصلى، وقد اختفت هذه القارة فى آخر جائحة كبرى حدثت فى الماضى، فما من شك فى أن بقايا تراثها قد انتقل إلى مناطق مختلفة، وقد انصهرت بالتراث المحلى بها، وهى فى معظمها فروع من التراث القطبى العظيم ومن أكبر الاحتمالات أن تكون المذاهب الكلتية على الأخص من ضمن نتائج ذلك الانصهار. ونحن بعيدون عن إنكار ذلك ولكن دعونا لا ننسى أن الشكل 'الأطلنطى' الحقيقى للتراث قد اختفى منذ آلاف السنين مع الحضارة التى كان ينتمى إليها. وربما جاءت نهايته نتيجة انحرافٍ مثل الذى يواجهنا اليوم، وبفارق مهمٍّ هو أن الجنس البشرى لم يكن قد دخل بعد فى مرحلة الزمن المظلم ' كالى يووجا'. كما أن من الضرورى أن نتذكر أن التراث الأطلنطى يناظر مرحلة ثانوية فى دورتنا الحالية، وسوف يكون من الخطإ محاولة ربطه بالتراث الأولانى الذى نبعت منه كافة الحضارات الأخرى، وهو فقط الذى عاش فى استمرارية من بدايته حتى النهاية. ولا لزوم هنا لإيراد كل المعطيات التى تبرر مقولتنا هذه، فنحن نصرُّ فقط على استحالة بعث التراث 'الأطلنطى'، أو الارتباط به بشكل مباشر، فالمحاولات التى من هذا القبيل تعتبر وهمية. إلا أن من الصحيح أن البحث فى أصول العناصر التى تجمعت لتشكل التراث الذى تلاها هو أمر ذو أهمية، طالما اتُخذت كافة الاحتياطات لتلافى بعض الأوهام، ولكن هذه البحوث لن تستطيع أن تؤدى بأى حال

إلى بعث تراث ليس ملائما لأى من ظروف وأحوال عالمنا الحالى.

وهناك آخرون يرغبون فى الارتباط بالكلتية، وحيث إن النموذج الذى يحتذونه أقرب إلى زمننا فقد يبدو غرضهم أكثر عملية. ولكن أين يجد المرء 'الكلتية' اليوم فى حالتها النقية، وبحيث تكون بحيوية كافية حتى يمكن الاستناد إليها؟ ونحن لا نتحدث عن مجرد الآثار أو الأدبيات التى ظهر كثير منها عن الكلتية، ولكننا نفكر فى أمر مختلف تماما. فصحيح أن كثيرا من العناصر المفيدة قد تواترت إلينا عن طريق وساطات عدة، ولكن هذه العناصر أقل كثيرا مما قد يشكل تراثا متكاملا، ثم إن من الغريب أن هذا التراث قد نُسى تماما حتى فى البلاد التى عاشت فيها الحضارة 'الكلتية' فيما مضى، كما أنها قد نسيت بشكل كامل حاليا فى موطنها نسيانا أشد من نسيانهم لمعظم الحضارات التى لم تعش هناك أصلا! أليس هذا أمرًا يبعث على التأمل على الأقل بالنسبة لأولئك الذين لا يقعون بالكامل فى قبضة أفكار مسبقة؟ ونقول أيضا، عندما يتعلق الأمر بالبقايا المتخلفة عن حضارات دارسة أن من المحال أن نفهم تلك البقايا إلا بمقارنتها بعناصر مشابهة فى حضارات تراثية كائنة لا تزال، وفى كل الحالات التى من هذا النوع، وينطبق نفس الأمر حتى على العصور الوسطى، والتى كانت فيها أشياء كثيرة فقدت معناها فى الغرب الحديث. وليس هناك بديل إلا عقد صلة بالحضارات التراثية الباقية لو كان للأمور القادرة على الحياة أن تُبَعَثَ مرة أخرى، وهذه كما نوهنا كثيرا فيما سلف هى أعظم خدمة يمكن أن يقدمها الشرق إلى الغرب. ونحن لا ننكر أن هناك روحا كلتية معينة قد عاشت، ولا تزال قادرة على التجلى فى أشكال عدة، كما سبق لها فى بعض فترات الماضى، ولكن حين يقول لنا بعضهم أنه لا زال هناك مراكز روحية للتراث الدرويدى بكامل مكوناته، فسوف نطلب منهم تقديم برهان على دعواهم، وما لم يفعلوا ذلك فسوف نظل على اعتقادنا بأن هذا أمر مشكوك فيه إن لم يكن مستحيلا.

والحق أن العناصر الكلتية المتبقية قد هُضمت جزئيا فى الحضارة المسيحية فى العصور الوسطى، وأسطورة 'الكأس المقدسة' بكل ما تعنيه هى مثالٌ دالٌّ على ذلك. ثم إننا نعتقد أنه إذا قُدر لتراث غربى أن يُعاد بناؤه فلا مناص من أن يتخذ شكلا دينيا بالمعنى المنضبط للكلمة، وأن ذلك الشكل لا يمكن إلا أن يكون مسيحيا حيث إن الأشكال الأخرى

الممكنة قد أضحت بعيدة تماما عن العقلية الغربية لفترةٍ طويلةٍ من ناحية، ولا زالت تعيش بقايا الروح التراثية التى تعيش حاليا فى الغرب من ناحيةٍ أخرى فى المسيحية فقط وعلى الأخص فى الكاثوليكية. وكل محاولات 'التراثاتيين' التى يتجاهلون فيها هذه الحقيقة هى بلا أساس، ومحكوم عليها بالسقوط حتما، فمن الجلى أن المرء لا يستطيع أن يبنى إلا على شىء له وجود حقيقى، وأنه حينما ينقطع التواصل مع الحقيقة فإن أية محاولة لإعادة بنائه ستكون مصطنعة ولن تحتمل دواما. وإذا احتج أحد بأن المسيحية ذاتها غير مفهومة فى زماننا من حيث مغزاها العميق فسوف نُجيب بأنها على الأقل قد احتفظت فى بنيتها بكل ما نحتاج إليه كى يمدنا بالأساس الذى نتحدث عنه. وأقل المحاولات خيالية أو قل هى المحاولة الوحيدة الممكنة التى تتجنب المستحيلات المباشرة ستكون محاولة العودة إلى شىء أقرب مضاهاة بما كان فى العصور الوسطى، وإجراء التعديلات اللازمة لمواجهة تغير الظروف، وسيكون من الضرورى أن ننهل من التراث الذى لا زال محفوظا بكليته كما نوهنا من قبل، ثم إن علينا بعد ذلك أن نتفرغ للملاءمة التى ستكون فرض كفاية على صفوة فكرية قوية. ولقد ذكرنا كل ذلك سلفا ولكن من المفيد أن نصر عليه بين حينٍ وآخر، حيث إن كثيرا من الأوهام والخلط تعيث بلا ضابط فى الحاضر، ومن الواجب أيضا أن نفهم ما إذا كان يمكن لصفوة فكرية ستكون بطبيعتها فيما وراء كل الأشكال المعروفة أن تستوعب التراث الشرقى فى أشكاله الخاصة، فلن تكون الحال كذلك على مستوى الجماهير الغربية التى لم تُصنع لها تلك الأشكال، ذلك ما لم يحدث تبدل لا يمكن التحسب له. وإذا قُدِّر للصفوة الغربية أن تتكون فإن المعرفة بنظريات التراث الشرقى تصبح أمرا ضروريا فى تحقيق مهمتها، ولكن ما يبقى من أغلبية ساحقة من الشعب فمقدر لهم أن يحصدوا منافع الأعمال وأن يظلوا فى سلام بعيدا عن ذلك المجال، ويتأثرون بها دون أن يعوا كنهها، وهى على كلٍّ آثارٌ من أمور بعيدة عن أفهامهم، إلا أنها ليست أقل واقعية أو تأثيرا فى الواقع مما يوجد فى حياتهم المعتادة. ولم يحدث أبدا أن قلنا شيئا يخالف ذلك، ولكننا استحسنا أن نعيد قوله هنا بقدر أكبر من الوضوح، حيث إننا لا نتوقع أن يفهمنا الجميع على حد سواء، ونحاول على الأقل أن نتجنب ظنونا فى نوايانا لا تنتمى إلينا بحال.

لكن طبيعة الأمور الحاضرة هى التى تثير قلقنا، فلندع التوقعات جانبا ولنمض لحظة

أخرى فى المقترحات التى نجدها حول مسألة إحياء 'التراث الغربى'. وهناك ملحوظة واحدة فقط تكفى لبيان أن هذه الأفكار ليست بذات نظام، حيث إنها مفهومة دائما من وجهة نظر عدائية نحو الشرق بشكل واضح بصورة أو أخرى. ويحسن أن نضيف أنه حتى أولئك الذين يرغبون فى الاعتماد على المسيحية تتحكم فيهم أحيانا تلك المشاعر، فيظهر منهم انكباب أكثر من غيرهم على بحث الخلافات، وهى حقا خلافات تخيلية، وقد كان ذلك هو السبب الذى طالَعَنا من جرَّائه الرأى السخيف الذى يقول إن نفس الأشياء التى يُعبر عنها بأشكال متقاربة توجد فى كل من المسيحية والمذاهب الشرقية إلا أنها لا تحمل المعانى نفسها فى الحالتين، حتى إنها قد تتضاد تماما! وأولئك الذين يطرحون مثل هذا الجدل يثبتون أنه مهما كانت نواياهم فإنهم لم يتقدموا بدرجة تُذكر فى فهم النظريات التراثية، ولا علم لهم بالهُويّة المشتركة التى تسرى تحت سطح كل الاختلافات الظاهرية، وحتى لو كانت تلك الهوية واضحة للغاية فإنهم يعاندون فى الاعتراف بها. كما أن المفهوم الذى يتمتعون به عن المسيحية ذاتها سطحى تماما، ولا استجابة فيه لفكرة مذهب تراثى حقيقى تقدم توليفا كاملا يتشعب إلى كل المجالات، وينقصهم إدراك المبدإ الأساسى، وقد تأثروا فى حالهم هذه بدرجة أكبر كثيرا مما يتخيلون بالمنظور الحديث الذى يرغبون فى التمرد عليه، وعندما تسنح لهم فرصة لاستخدام كلمة 'تراث' فإنهم بالضرورة لا يعطونها نفس المعنى الذى نقصده.

وقد تعرضت كلمة 'تراث' للاستخدام فى جميع المجالات بلا تمييز فى خضم الاضطراب الفكرى الذى يسود زماننا، وغالبا فيما لا قيمة له، حتى إنها على سبيل المثال استُخدِمَت فى وصف عادات لا أصل لها، أو قد تكون ذات أصل حديث للغاية، وقد أشرنا فى موضع آخر إلى سوء استخدام مماثل لكلمة 'دين'. ولا بد من عدم الثقة بهذه الانحرافات اللغوية حيث إنها تعكس نوعا من الانحطاط فى أفكار مناظرة، وعندما يصف أحدهم نفسه بأنه 'تراثى' فإن ذلك لا يثبت أنه يعلم شيئا ولو بشكل ضبابى عما هو التراث بالمعنى الحقيقى للكلمة. ومن ناحيتنا فنحن نرفض مطلقا إضفاء ذلك الاسم على أى شىء كان فى مستوى البشر، وليس التصريح بهذا تزيدا فى زمن صُكت فيه تعابير مثل 'الفلسفة التراثاتية' تواجهنا فى كل منعطف. ولا حق لفلسفة ما فى هذا التوصيف حتى لو كانت هى كل ما يجب أن تكون عليه الفلسفة، ذلك لأنها بكاملها من مستوى العقل الجدلى حتى لو

لم تُنكر كل ما يجرى وراء هذا المستوى. ولا يعنى ذلك الاصطلاح إلا شعارا رفعه بعض الأشخاص دون وحى أو إلهام من أى نوع كان، وهو الأمر الذى يعنى باختصار، أنها فلسفة 'دنيوية'. ثم أنه رغم كل الأوهام التى يبدو أن البعض فرحون بها فإن تعديل عقلية جنس أو عصر لن تتم بأى علم من علوم الكتب، ولكن فقط عن طريق أمر ليس هو التكهنات الفلسفية، فهذه الأمور محكوم عليها بطبيعتها أن تظل برانية وكلامية أكثر منها حقيقية. والتراث المفقود لن يُستعاد ليحيا مرة أخرى إلا بالاتصال بالروح التراثى الذى لا زال يعيش فى عنفوانه. وحقيقة أن الضرورة الأولى لعودة النظرة التراثية هى وجود تطلُّع فى الغرب إلى ذلك، ولكنه لن يعدو مجرد تطلُّع. ويقوِّى اعتقادنا فى هذا الأمر أن كل ما ورد علينا من الحركات 'المناهضة للحداثة' هى جميعا ناقصة فى رأينا، ففى حين أنها تبلغ حد الجودة من نواحيها السلبية والنقدية إلا أنها بعيدة تماما عن كونها أساس إيجابى لتشكيل فكر حقيقى، ولا تزدهر إلا فى حدود أفق فكرى ضيق. إلا أنها شىء ما على كل حال، من حيث إنها تشير إلى إطار فكرى لم يكن ليوجد له أثر منذ سنوات قلائل، ولو أن الغربيين لم يبقوا على إجماعهم فى الاغتباط بالحضارة الحديثة فربما كانت هذه علامة على أن الأمل فى خلاصهم لم يُفقد تماما.

وعلى كلٍّ فإذا حدث أن الغرب قد عاد إلى تراثه بشكل ما فسوف تنتهى اعتراضاته للشرق وتُحلُّ حيث إن جذور تلك الاعتراضات كامنة فقط فى الانحرافات الغربية التى ليست فى حقيقة الأمر إلا التعارض بين المنظورين التراثى واللاتراثى. ولذا فإن أول النتائج المترتبة على عودة الغرب للتراث عكس اتجاه ما قالوا به سابقا هى جعل إجراء التفاهم مع الشرق ممكنًا على الفور، كما هو الحال بين الحضارات التى تمتلك عناصر قابلة للمضاهاة أو التساوى مع غيرها، ولا طريق غير ذلك حيث إن تلك العناصر تشكل الأرضية الوحيدة التى يمكن أن يتأسس عليها تفاهم فعَّال. فالمنظور التراثى الحقيقى هو دائمًا نفس الشىء بالضرورة فى كل مكان، مهما كانت الأشكال الظاهرية التى يتخذها، فالأشكال المختلفة التى تناسب أحوالا عقلية وظروفا متنوعة من حيث الزمان والمكان هى أبدا تعبير عن الحقيقة نفسها، ولكن لن يستطيع فهم تلك الوحدة الأساسية فيما تحت التعددية الظاهرية إلا الذين أوتوا القدرة على اتخاذ موقف فكرى حقيقى. ثم إن المبادئ التى ينبع منها كل شىء

لا توجد إلا فى المستوى الفكرى، وسواء أكان ذلك استنباطا من النتائج أم عن طريق تطبيقات متباعدة إلى حد ما، ولابد من أن يُتفق على هذه المبادئ إذا كان المطلوب هو تحقيق التفاهم العميق، فهى تمثل ما هو جوهرى حقا، وحالما يجرى تفهمها فسوف يحدث الاتفاق من تلقاء ذاته. ولابد من ملاحظة أن معرفة المبادئ هى معرفة جوهرية أو هى المعرفة الميتافيزيقية بالمعنى الصحيح للكلمة، وهى كلية شأنها شأن المبادئ ذاتها، وهى لذلك مستقلة عن كافة العوارض الشخصية التى لابد وأن تتدخل بمجرد أن تهبط إلى مستوى التطبيق، وهذا النطاق الفكرى إذن هو الوحيد الذى لا حاجة به إلى بذل جهد فى الملاءمة بين العقليات المختلفة. زد على ذلك أنه حين يتم العمل بهذا الترتيب ولا يبقى إلا تحصيل نتائجه فسوف نصل إلى توافق مع كافة الحقول الأخرى كما ذكرنا، فعلى هذا فقط يعتمد كل شىء آخر بشكل مباشر أم غير مباشر، ومن ناحية أخرى فالاتفاقات التى يتم التوصل إليها فى أى مستوى خلاف مستوى المبادئ ستكون دائما غير ثابتة ومعرضة للمخاطر شأنها شأن الدبلوماسية، فهى ليست مبنية على فهم حقيقى. ولذلك نقول مرة أخرى إن التفاهم الحقيقى يمكن أن يتحقق فقط عندما يأتى من أعلى، وليس من أسفل، ويجب أن يُفهم ذلك على وجهين، إن العمل يجب أن يبدأ مما هو أعلى أى من المبادئ ويتنزل بالتدريج إلى المستويات المختلفة للتطبيق، ويجب دائما أن نتمسك فى حزم بالتبعية الهيكلية القائمة بين مراحلها، ولابد أن تكون أيضا من عمل صفوة بأصدق وأكمل ما فى هذه الكلمة، ونعنى بذلك القصر على الصفوة الفكرية فقط، ولا يمكن أن يوجد فى الحقيقة سواها، حيث إن كافة التمايزات البرانية ليس لها أية أهمية من وجهة النظر التى نحن بصددها.

وتفسر هذه الاعتبارات القليلة مدى جسامة ما ينقص الحضارة الغربية الحديثة، ليس فقط فيما يتصل بإمكانية تحقيق تفاهم فعال مع الحضارات الشرقية، ولكن ما ينقصها كى تصبح حضارة طبيعية كاملة، والحق أن هاتين المسألتين مرتبطتان لدرجة أنهما تكوِّنان مسألة واحدة، وقد أسلفنا القول فى أسباب ذلك. وعلينا الآن أن نبين بوضوح العناصر التى تتكون منها النظرة اللاتراثية، والتى هى النظرة الحديثة حقا، وأن نبين النتائج التى تحملها فى ذاتها، والتى نراها تنبثق فى الأحداث الجارية حاليا بمنطق لا يرحم، ولكن

قبل أن ننتقل إلى ذلك يتعين علينا أن نذكر ملحوظة واحدة ضرورية: أن الإصرار على أن يكون المرء 'مناهضا للحداثة' لا يعنى أنه 'مناهض للغرب'، والعكس هو الصحيح، فهى تعنى فقط بذل جهد جهيد لإنقاذ الغرب من الاضطراب الذى وقع فيه، وعلى كلٍّ فليس هناك من شرقىٍ مخلصٍ لتراثه يمكن أن يرى الأمور بخلاف ذلك، ومن المؤكد أن هناك معارضين فى الشرق للغرب أقل كثيرا مما يوجد فى الغرب للشرق، وهو مسلك لا معنى له فيما يتصل بأن الغرب قد صار مرهونا بالحضارة الحديثة. فهناك حاليا من يتحدثون عن 'الدفاع' عن الغرب، وهو أمر غريب لو اختصرنا القول إلى أقلِّه، باعتبار أن الغرب كما سنبين لاحقا هو الذى يهدد بإغراق العالم بأسره فى دوامة نشاطه المحموم، ونقول 'أمر غريب' ولا مبرر له على الإطلاق لو أنه يعنى أن هذا دفاع ضد الشرق رغم بعض التحفظات، ذلك أن الشرق الحقيقى عازف عن الهجوم على أحد أو السيطرة على أحد، ولا يطالب إلا بأن يترك فى هدوئه، وليس ذلك بمطلب مجحف بالتأكيد. والواقع أن الغرب فى حاجة ماسة للدفاع، ولكن ضد ذاته وضد ميوله هو، والتى إذا اندفعت لتكتمل نتائجها فسوف تؤدى إلى الخراب والدمار لا محالة، وما يحتاجه الغرب لا يعدو 'الإصلاح'، ولو كان ذلك الإصلاح كما يجب حقا أن يكون أى إحياء التراث فسوف يتبعه التقارب مع الشرق كنتيجة طبيعية له. ومن ناحيتنا فنحن لا نسأل إلا أن نشارك بما نستطيع سواء أكان فى الإصلاح أم التقارب، ذلك لو كان الوقت لا يزال يسمح، ولو كان التوصل إلى مثل ذلك مُقدرا قبل القارعة الأخيرة التى تقعقع نحوها الحضارة الحديثة بخطى واسعة. وحتى لو كان الوقت متأخرا بالفعل لتجنب هذه الكارثة فإن الجهد المبذول لهذه الغاية لن يذهب سدى' فسوف يكون مفيدا على كل حال فى التحضير ولو من بعيد لذلك التمييز الذى تكلمنا عنه فى البداية، وبهذا نضمن الحفاظ على تلك العناصر التى ستنجو من حطام سفينة العالم الحالى كى تصير فسيلة لعالم المستقبل.

3. التأمل والفعل

سوف نعكف الآن على فحص أكثر تفصيلا لواحد من الجوانب الرئيسة للتعارض الذى يسود بين العقليتين الشرقية والغربية، والذى يضاهى الخلاف بشكل عام بين المنظورين التراثى واللاتراثى كما شرحنا سلفا. ويتبدى ذلك الصراع فى شكل التعارض بين التأمل والفعل من وجهة نظرٍ معينة، وهو التعارض الأكثر أهمية، أو فى اختلاف الرأى حول أهمية أحدهما على الآخر، أو فى اختلاف الآراء حول أهميتهما النسبية. وهناك كثير من الطرق المختلفة للنظر فى العلاقة بينهما، فهل هما متقابلان أحدهما عكس الآخر كما يقول الرأى العام؟ أم هما متكاملين مع بعضهما؟ أم أن علاقتهما تأتى فى إطار هيكل من التبعية أكثر من كونها علاقة تناسقية؟ هذه هى الجوانب المختلفة للنظر فى المسألة، وتناظر هذه الجوانب كثيرا من وجهات النظر، والتى وإن لم تتساو أهميتها فلها جميعا ما يبررها فى بعض المناحى حيث إن كلا منها تناظر مستوى من مستويات الحقيقة.

وسوف نبدأ بأكثر وجهات النظر ضحالة وظاهرية، وهى تلك التى تعالج التأمل والفعل باعتبارهما متقابلين تماما كأضداد بمعنى الكلمة. ومثل هذا التضاد قائم بلا نقاش كما توحى به المظاهر، ولكن إذا كان غير قابل للتصالح فسوف يحدث عدم تلاؤم تام بين التأمل والفعل ولن يمكن أن يتواجدا سويا. ولكن الأمر ليس هكذا على الحقيقة، وليس هناك فى الظروف الطبيعية على الأقل شعب أو فرد يمكن أن يكون متأملا فقط أو فاعلا فحسب. والحق أن هناك نزوعين لابد لأحدهما أن يتفوق على الآخر لا محالة، حتى إن نمو أحدهما يبدو كما لو كان على حساب الآخر، وذلك لسبب بسيط هو أن النشاط الإنسانى بمعناه الواسع لا يمكن أن يكرِّس نفسه بالتساوى بين كل المجالات والمشارب فى الوقت

ذاته. وهذا هو السبب الذى يجعل مظهر التضاد بينهما قائما، ولكن لابد وأن يكون التصالح أمرا ممكنا بين تلك المتقابلات أو ما تُسمى كذلك، والحق أننا نستطيع قول الشيء نفسه عن جميع المتقابلات التى تكفُّ عن تقابلها بمجرد النظر إليها من مستوى أعلى من المستوى الذى يبدو فيه ذلك التقابل حقيقيا. والتعارض أو التضاد يعنى عدم الاتساق أو عدم الاتزان، وهو أمر يمكن أن يوجد فقط كما ذكرنا من وجهة نظر نسبية وخاصة ومحدودة.

ولكى نرى التأمل والفعل فى حال تكامل علينا أن نتبنى وجهة نظر أعمق وأصدق من تلك المذكورة آنفا، حيث يحل التعارض ويتصالح، ويتوازن الاصطلاحان إلى حد معين مع أحدهما الآخر. ويبدو إذن أن الأمر يتعلق بعنصرين لازمين بالتساوى يُكملُ ويدعمُ أحدهما الآخر، ويُشكلان النشاط المزدوج بين الداخل والخارج لنفس الكائن سواء أكان ذلك كل إنسان فى حد ذاته أم الجنس البشرى ككل، وهذا المفهوم بالتأكيد أكثر اتساقًا وإقناعًا من المفهوم المذكور آنفا، إلا أنه يغرى المرء بفضل العلاقة المستنتجة بأن يضع التأمل والفعل على مستوى واحد، وبحيث يكون الأمر الضرورى الوحيد هو الحفاظ على التوازن بينهما بقدر الإمكان دون الاهتمام بأيهما أسمى من الآخر، ولكن من الواضح أن وجهة النظر هذه لا زالت غير كافية، حيث إن مسألة السمو هذه كانت دائما ولا تزال مطروحة بصرف النظر عن الطرق التى ارتادها الإنسان للإجابة عليها.

والنقطة المهمة فى هذا الصدد ليست هى مجرد تفوق أحدهما على الآخر فى الممارسة، والتى هى قبل كل شيء مجرد مسألة استعداد أو جنس، ولكن ما يمكن أن يُدعى حق التفوق وهذان الأمران لا يرتبطان معا إلا بدرجة ما. ولا شك فى أن الاعتراف بسمو أحدهما سيقود إلى تطوره بحد أقصى على الآخر، ولكن يجب أن يكون النزوع الخاص فى التطبيق لكل فرد محل اعتبار، والمراتب التى يحتلها كل من التأمل والفعل فى حياة إنسان أو حياة أمة لابد من أخذ الإمكانات الخاصة لكل واحد منهما فى الاعتبار. ومن الواضح أن القابلية للتأمل أكثر انتشارا وأكثر تطورا بصفة عامة فى الشرق وربما فى الهند أكثر من أى موطن آخر، وهو الأمر الذى يمكن أن يمثل إلى أقرب درجة ما أسميناه بالروح الشرقية. ومن ناحية أخرى فإن القابلية للفعل أو بالأحرى الميول الناشئة عن تلك القابلية

هى من خصائص شعوب الغرب، على الأقل من حيث نزوع الغالبية العظمى من الأفراد. وحتى لو لم تكن تلك الميول منحرفة ومُبالغا فيها إلى الحد الذى نراه حاليا فإنها ستستمر فى الوجود، وسوف يبقى التأمل فى الغرب دائمًا محدودا فى دائرة صفوة ضيقة، ولهذا السبب قيل فى الهند لو أن الغرب عاد إلى الحياة الطبيعية وكان له مؤسساته الاجتماعية المنتظمة فسوف يكون فيه كثرة من الكشاطريا وقلة من البراهمة. وإذا ما تم تكوين الصفوة الفكرية والاعتراف بسيادتها بشكل فعال فسوف يكفى ذلك لتحقيق الاتزان، فالقدرة الروحية ليست قائمة على العدد الذى يكمن قانونه فى المادة، وإلى جانب ذلك أنها مسألة ذات أهمية عظمى، فإن انصياع الغربيين للفعل لم يمنعهم فى الأزمنة القديمة خاصة فى العصور الوسطى من الاعتراف بسمو التأمل، أى الاعتراف بالذكاء البحت. فلماذا أخذت الأمور منحى مختلفا فى الأزمنة الحديثة؟ ذلك لأن الغربيين قد فقدوا قدرتهم على التفكير فى خضم انكبابهم على تعظيم قدرتهم على الفعل، ولأنهم يعزُّون أنفسهم باختراع نظريات تُعلى من شأن الفعل فوق كل أمر آخر مثل البراجماتية، وذهبوا إلى حد إنكار قيمة كل ما ليس فعلا أو أن العكس هو الصحيح، أى إن قبول وجهة النظر هذه هو الذى أدى إلى الضمور الفكرى الذى نراه اليوم؟ وفى كلتا الحالتين وإذا كانت الحقيقة كامنة فيما بينهما كما هو محتمل فالنتائج واحدة تماما، فقد آن أوان التصرف فى الدرجة التى وصلت الأمور إليها، وهنا تحديدا نقولها مرة أخرى، إن الشرق يمكن أن يأتى لنجدة الغرب إذا ما رغب الغرب فى ذلك، وليس ليفرض مفاهيم غريبة عليه مثلما يبدو فى تخوفات البعض، ولكن لمساعدته على إعادة العثور على تراثه الخاص الذى فقد معناه.

ويمكن القول بأن التناقض الحالى بين الشرق والغرب فى الوضع الراهن يكمن فى أن الشرق يحافظ على سمو التأمل على الفعل، بينما يتمسك الغرب الحديث بسيادة الفعل على التأمل. ولم تعد المسألة فى هذه الحالة هى وجهات النظر التى لكل منها ما يبررها، وتصبح مقبولة كتعبير عن حقيقة نسبية، كما كان الحال عندما تكلمنا عن التأمل والفعل كأضداد متقابلة أو مكملة لأحدهما الآخر، مما ينتج عنه احتمال تنسيق العلاقة بينهما. أما علاقات الخضوع فهى علاقات غير قابلة للانعكاس بطبيعتها، والمفهومان فى الحقيقة متناقضان، ولذلك فإن كلا منهما منعزل عن الآخر، فإذا نحن سلمنا أن هناك حقا خضوعا فإن أحد

المفهومين يصير صحيحا بينما يعتبر الآخر زائفا. ولكن قبل أن نستطرد فى صلب الموضوع فلنلاحظ نقطة أخرى هى أنه بينما عاشت النظرة الشرقية فى كل العصور كما رأينا سلفا فإن النزوع الآخر يعود إلى تاريخ قريب للغاية، وهذا بغضِّ النظر عن كل الاعتبارات الأخرى، يوحى بأن ذلك النزوع غير طبيعى بشكل ما. وهذا الانطباع قد تأكد بالمبالغة التى سقطت فيها العقلية الغربية الحديثة باتباع نزوعها الكامن ذاك، حتى إنها لم تكتف بالإعلان فى كل مناسبة عن امتيازها فى الفعل، ولكن الناس قد وصلوا إلى حد جعل الفعل مشغوليتهم الوحيدة، وأنكروا قيمة التأمل، وتجاهلوا طبيعته الحقيقية، أو فشلوا تماما فى فهمها. أما النظريات الشرقية فهى على العكس من ذلك ففى الشرق يسمحون للفعل بمكانته المشروعة، ولا يضعون الصعوبات فى التعرف على أهميته فى مستوى الحوادث الإنسانية بينما يؤكدون فى وضوح وبقدر الإمكان امتياز التأمل على الفعل، بل ويؤكدون تفوقه[10].

والنظريات الشرقية ونظريات الغرب القديمة أيضا مُجْمِعَةً على تأكيد أن التأمل أسمى من الفعل، مثلما يكون الثابت أسمى من المتغير[11]. فالفعل بوصفه مجرد تعديل لحظى طارئ على الكائن لا يمكن أن يحمل فى ذاته مبادئ وجوده وسببه، وإذا لم يعتمد على مبدإ أسمى خارج نطاق وجوده الطارئ فهو مجرد وهم، وهذا المبدأ الذى يستمد منه الفعل كل ما يستطيع من الحقيقة التى يمكن أن يتوخاها أى وجوده واحتمالاته ولا يمكن أن توجدا إلا فى التأمل أو فى المعرفة، وهذان الاصطلاحان الأخيران مترادفان أساسا، أو هما على الأقل يتوافقان، حيث يستحيل أن نفصل المعرفة عن العملية التى تُحَصَّلُ بها[12]. وقل فى التغير مثل ذلك بأوسع معنى للكلمة فهو غير مفهوم ومتناقض، أى أنه يستحيل دون مبدإ ينبثق منه، والذى لا يصح أن يخضع له حيث أنه مبدؤه، وهو بالضرورة لا يتغير، وقد

10 على الذين يشكُّون فى الأهمية الحقيقية للفعل فى النظريات التراثية للشرق، برغم أنها نسبية وعلى الأخص فى الهند أن يراجعوا *باجها فاد جيتا*، وهو كتاب موجه خصيصا للكاشاطريا إذا كانوا يرغبون فى فهم الفعل فهما سليما.

11 وبفضل هذه العلاقة يقال ان البرهمى هو الكائن المستقر الثابت، بينما الكاشاطريا هو النوع المتحرك أو المتقلب، وهكذا فكل الناس فى هذه الدنيا ووفقا لطبيعتهم على علاقة رئيسية بأحدهما أو الآخر، حيث إن هناك تناظرا تاما بين النظامين الكونى والإنسانى.

12 ومن الناحية المضادة يحسن ان نلاحظ كيف أن النتائج فى عالم الفعل دائما ما تنفصل عن ذلك الذى أنتجها نظرا لطبيعته اللحظية بالضرورة، ولكن المعرفة تحمل ثمارها فى ذاتها.

كان هذا هو السبب الذى جعل أرسطو فى الغرب القديم يؤكد وجوبَ وجودِ 'مُحَرِّكٍ لا يَتَحَرَّك' وراء كل شىء. والمعرفة هى 'المُحَرِّك واجب الوجود الذى لا يَتَحَرَّك، ومن الواضح أن الفعل ينتمى برمته إلى عالم التغير و'السيرورة'، والمعرفة وحدها هى التى يمكن أن تقدم الإمكانية للتعالى على هذا العالم ومحدداته الكامنة فيه، وحينما تصل إلى اللامتحرك وهو شأن المعرفة الميتافيزيقية الرئيسية أى المعرفة بالجوهر فإنها تصبح رهينة الدوام، فكل معرفة حقة تتضمن التوحد مع مقصدها أساسا. وهذا بالضبط ما يتجاهله الغربيون المحدثون، فهم لا يعترفون بما هو أعلى قيمة من المعرفة العقلية أو الجدلية، وهى بالضرورة غير مباشرة ولا مكتملة، حيث إنها ما يمكن وصفه بالمعرفة المنعكسة، وحتى هذا النوع الأدنى من المعرفة يكتسب قيمة باقترابه فحسب من خدمة أغراض عملية مباشرة. وقد ذهبوا فى انهماكهم فى الفعل إلى الحد الذى يُنكرون فيه ما وراءه، وهم لا يرون أن ذلك الفعل ينحطُّ نتيجة خلوِّهِ من المبدإ إلى عناء ردىء بقدر ما هو باطل وعقيم.

والحاجة إلى إثارة مستمرة وتغير لا ينتهى هى أكثر السمات وضوحا فى الحقبة الحديثة، وسرعة متزايدة أبدا لتضاهى سرعة توالى الأحداث ذاتها. أنه التفرق فى الكثرة لا كذب، وهى كثرة كغثاء السيل لا يوحِّدها وعى بأى مبدإ أعلى، وليس هناك إلا التحليل مدفوعا إلى أقصاه فى الحياة اليومية كما فى الأفكار العلموية، ويفرز تقسيمات لا تنتهى، ويتوخى تفكيكا حقيقيا للنشاط الإنسانى فى كل المستويات التى يمكن أن يُمارس فيها التفكيك، ومن هنا جاء العجز عن تركيب الأفكار، وعدم القدرة على أى نوع من التركيز، وهذا أمر يثير الدهشة فى نظر الشرقيين. وهذه هى النتائج الطبيعية والحتمية للتوجه نحو مزيد من المادية، فالمادة تعدد وانقسام بالضرورة، وهذا بالمناسبة هو السبب الذى يجعل كل ما ينبثق عن المادة لا ينتج إلا الصراعات والمنازعات من كل نوع سواء بين الشعوب أو الأفراد. وكلما غاص المرء فى المادة كلما اتسعت عناصر الانقسام والمخالفة، والعكس حينما يرتفع المرء إلى الروحية الحقة، كلما اقترب من الوحدة التى لا يمكن أن تتحقق إلا بالوعى بالمبادئ الكلية.

وما هو أكثر غرابة أن الحركة والتغير قد أصبحا مطلوبين فعلا من أجل خاطرهما، وليس بالنظر إلى أية غاية يؤديا إليها وهذا نتيجة مباشرة لامتصاص كل الملكات الإنسانية

فى الأفعال الظاهرية التى عرضنا لتونا لطبيعتها المؤقتة. ومرة أخرى نجد الفرقة، من منظور مختلف، وفى مرحلة أكثر تأكيدا، ويمكن أن توصف كنزوع إلى اللحظية، حدودها حالة من عدم الاتزان، والتى إذا ما أمكن التوصل إليها فقد تتزامن مع التحلل النهائى للعالم، وهذه أيضا علامة من أوضح العلامات على اقتراب المرحلة الأخيرة من العصر المظلم كالى يووجا.

ومن هذا المنطق أيضا فإن النزوع ذاته ملحوظ فى المجال العلمى، فالبحث فيه بغرض البحث أكبر كثيرا من توخى النتائج الجزئية والمتشظية التى قد يصل إليها البحث، وهنا نجد تتابعا متسارعا لنظريات وافتراضات لا أساس لها، ولا تكاد تقوم حتى تنهار لتخلى الطريق لغيرها من النظريات التى قد يكون عمرها أقصر، وهذا عماء حقيقى لا جدوى فيه من البحث عن أية عناصر مكتسبة، ولا يجد إلا تراكما هائلا من الوقائع والتفاصيل التى لا تستطيع إثبات شىء ولا إضفاء معنى على شىء. ونحن نشير هنا بالطبع إلى ما يتعلق بوجهة نظر العلوم الفكرية فى حدود استمرارها فى الوجود، أما العلوم التطبيقية فلها نتائج لا تنكر، وهذا مفهوم بسهولة إذ إن تلك النتائج تنصب مباشرة على المجال المادى، وهو الميدان الوحيد الذى يستطيع الإنسان الحديث أن يباهى بتفوق حقيقى فيه. ومن المتوقع إذن أن تتوالد وتتسارع الاكتشافات أو بالأحرى الاختراعات الميكانيكية والصناعية كلما اقتربنا من نهاية العصر الحالى، ومن يدرى ما إذا كانت هذه الاختراعات هى أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى الكارثة الأخيرة، بالنظر إلى مخاطر الدمار التى تحملها فى ذاتها، لو وصلت الأمور إلى الحد الذى لا يمكن تجنبه؟

وعلى كل حال، فقد تكوَّن الانطباع العام لدى المرء بأنه لم يعد هناك فرصة للاستقرار فى الوضع الراهن، ولكن فى حين يوجد أناس يشعرون بالخطر ويحاولون الاحتماء منه، فإن معظم المعاصرين غافلون فى خضم هذا الاضطراب، ويرون فيه صورة ظاهرية لعقلياتهم. والحق أن هناك تساوقا تاما بين عقلهم الذى يرى أن كل الحقيقة كامن فى تلك 'السيرورة' وبين عالم يبدو فيه كل شىء فى حالة 'سيرورة'، ولم يعد فيه مكان للثبات الذى لا يتغير، وفى ذلك إنكار للمعرفة، وإنكار مقاصدها، أى المبادئ الكلية العليا. ويمكن للمرء حتى أن يقول إن ذلك يناظر نفى كل المعرفة الحقة أيا كانت، حتى لو فى

مستوى نسبى، حيث إن النسبى كما نوهنا من قبل يستحيل فهمه دون المطلق، ولا الحادث دون الجوهرى، ولا التغير دون الثبات، ولا التعدد دون التوحيد، و'النسبية' تتعارض مع ذاتها، حيث إنها فى نزوعها لاختزال كل شىء إلى التغير، فإن المرء يصل منطقيا إلى نفى وجود التغير ذاته، ولم يكن من معنى فى الواقع سوى ذلك فى الجدلية الشهيرة لزينون الإيلى. ولكننا لا نرغب فى المبالغة، ونضيف إلى ذلك أن النظريات من هذا القبيل لم تعد واردة فى الزمن الحديث، والأمثلة متوفرة أيضا فى الفلسفة الإغريقية منها نظرية 'الدفق الكونى' لهيراقليطس، وهى أكثرها شيوعا فى هذا الصدد، والواقع أنها هى ما حدا بالمدرسة الإيلية إلى دحض مفاهيمه، وكذلك فعلت نظريات 'الذريين'، بنوع من اختزالها إلى عبث *reductio ad absurdum* ونجد حتى فى الهند شيئا يضاهيها، ولكنه بالطبع مطروح من وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر الفلسفة، كما تطورت فى البوذية أيضا سمة مشابهة، وأحد مقولاتها الأساسية هى 'قابلية كل الأشياء للتحلل'، وهذه المذاهب لم تكن تعدو استثناءات، وقد تكون مثل هذه الثورات على النظرة التراثية قد حدثت بين وقت وآخر فى سياق العصر المظلم كالى يووجا، وكان انتشارها محدودًا، لكن الجديد فى الأمر هو القبول العام لهذه المفاهيم التى نراها فى الغرب اليوم.

ويجب أيضا مراعاة أن 'فلسفات السيرورة' فى ظل سيطرة فكرة 'التقدم' فى العصر الحديث، قد اتخذت شكلا خاصا لم تتخذه النظريات المماثلة أبدا بين الأقدمين، ويمكن أن نُجمل أن هذا الشكل قد يتخذ مظاهر عديدة تحت عنوان 'التطورية'، ولا داعى لتكرار ما أسلفنا قوله عن هذا الموضوع الذى عالجناه فى موضع آخر، ولكننا سنتذكر أن أى مفهوم لا يسمح إلا 'بالسيرورة' هو بالضرورة مفهوم 'طبيعى'، وهو بالتالى يعنى نفيا صوريا لكل ما يكمن وراء الطبيعة، أى عالم الميتافيزيقا اللاصورى، وهو عالم المبادئ الثابتة الخالدة. ونشير أيضا فى سياق الحديث عن النظريات اللاميتافيزيقية إلى أن الفكرة البرجسونية عن 'الدوام البحت' تناظر تماما مسألة اللحظية التى نوهنا عنها سابقا، وهى ادعاء الحدس على غرار الدفق الدائم للأشياء والمحسوسات، وهذا الحدس المزعوم لا يستطيع أن يكون أداة لتحصيل معرفة حقيقية، بل هو سبيل إلى انهيار كل معرفة ممكنة.

ويقودنا هذا إلى تكرار النقطة الجوهرية التى لا يصح أن يشوبها أى غموض، وهى

البصيرة الفطرية *intellect*، والتى لا يمكن تحصيل المعرفة الميتافيزيقية بدونها، وليس لها شبه بذلك 'الحدس' الذى يتحدث عنه فلاسفة معاصرون، فالأخير يتعلق بالمجال الحسى، وهو فى الواقع دون عقلانى، فى حين أن الأول ذكاء محض فوق عقلانى. ولكن المحدثين فى جهلهم بما هو أعلى من العقل الفردى فى مراتب الفطنة لا يستطيعون حتى تصور إمكانية وجود العقل البصير، فى حين أن نظريات الأقدمين فى العالم وفى العصر الوسيط قد سلَّمت بوجوده وتفوقه على كافة الملكات الأخرى حتى لو لم تكن إلا فلسفات بطبيعتها، ولا تملك بما هى على تفعيل هذا الحدس. ولهذا لم يكن هناك عقلانية قبل ديكارت، فالعقلانية ظاهرة حديثة، ومرتبطة بالفردية، وليست إلا إنكار كافة الملكات التى تعلو على المستوى الفردى. وطالما أصر الغربيون على تجاهل أو نفى وإنكار العقل الفطرى البصير فلا سبيل لهم إلى تراث بالمعنى الحقيقى للكلمة، ولا هم بقادرين على التوصل إلى تفاهم مع الممثلين الحقيقيين للتراث الشرقى، والذى ينبثق كل ما فيه من ذلك العقل البصير، وهو التراث الثابت المعصوم فى حد ذاته ونقطة الانطلاق الوحيدة المتاحة نحو أى تطور وفقا للمعايير التراثية.

4. العلوم المقدسة والعلوم الدنيوية

لقد رأينا لتوِّنا كيف تكمن البصيرة الفطرية فى جذور كل شىء فى الحضارات التراثية، وبكلمات أخرى إن النظرية الميتافيزيقية البحتة هى التى تشكل الجوهر، ويرتبط بها كل شىء آخر، سواء أكان فى شكل نتائج أم تطبيقات فى المستويات المختلفة للوقائع المحتملة. ولا يصدق هذا فقط على المؤسسات الاجتماعية، ولكن على العلوم أيضا، أىّ معارف تنتمى إلى مجال ما هو نسبى، وتنظر إليها تلك الحضارات باعتبارها خاضعة لغيرها، أو امتدادات أو انعكاسات للمعرفة المطلقة التى تتعلق بالمبدإ. ولذا يحافظون فى كل مكان على هيكل حقيقى، فالنسبى لا يُعامل باعتباره غير موجود، فهذا ادعاء سخيف، بل يؤخذ فى الاعتبار ويوضع فى مكانه المشروع، والذى لا يمكن أن يكون إلا موقعًا ثانويًّا خاضعًا، وهناك درجات من الحقائق المختلفة حتى فى المجال النسبى نفسه، وذلك تبعا لقرب الموضوع أو بعده عن دائرة المبادئ.

وقل مثل ذلك فيما يختص بالعلوم، فهناك مفهومان مختلفان لا يلتقيان بشكل جذرى، ويمكن أن نطلق عليهما المفهوم التراثى والمفهوم الحديث. وقد سنحت لنا فرص عدة للتنويه عن 'علوم تراثية' وجدت فى الزمان القديم وفى العصور الوسطى، ولا زالت توجد فى الشرق، إلا أن الفكرة عنها بعيدة عن أذهان الغربيين اليوم، ولا بد من إضافة أن كل حضارة كان لها 'علوم تراثية' تخصها، وكل منها ذات نمط خاص. ولسنا هنا بصدد طرح المبادئ الكلية التى تنتمى إليها الميتافيزيقا فقط، ولكن فى عالم التلاؤمات والملابسات من واقع أنه عالم حادث طارئ، ولا بد من التحسب للتركيب الكامل للأحوال سواء أكانت عقلية أم غيرها لشعب من الشعوب، ونستطيع حتى القول بضرورة التحسب لفترة معينة من وجود ذلك الشعب، حيث إن هناك أوقاتا يصبح فيها إعادة التلاؤم ضروريا كما

أسلفنا. وهذه التلاؤمات ليست إلا تغيرات فى الشكل، ولا تمس جوهر التراث، ففى النظرية الميتافيزيقية لا يقبل التعديل إلا التعبير وحده، وبطريقة تكاد أن تماثل الترجمة من لغة إلى أخرى أيًّا كان الشكل الذى تتخذه للتعبير عن نفسها إذا كان التعبير ممكنا وتبقى الميتافيزيقا واحدة، مثلما أن الحق ذاته واحد. إلا أن القضية تختلف عندما ننتقل إلى عالم التطبيقات بين العلوم والمؤسسات الاجتماعية، حيث نكون فى عالم الشكل والتعدد، وحيث نجد أشكالا كُثرا تمثل علوما مختلفة، حتى لو ظل مقصد الدراسة واحدًا بشكل جزئى على الأقل. ويُعَرِّف المناطقة علما ما قصرا على مقاصده، وهو تبسيط مخل، فالزاوية التى يُنظر منها إلى ذلك العلم يجب أن تؤثر أيضا على تعريفه. وعدد العلوم المحتملة لا يُحصى، وقد يحدث أن تُدرس عدة علوم أمرا واحدا من جوانب مختلفة، وبالتالى بطرق مختلفة ونوايا مختلفة، حتى إنها تعتبر علوما مختلفة فى واقع الأمر. وهذه هى الحال خصيصا مع العلوم التراثية التى تنتمى إلى حضارات مختلفة، والتى بالرغم من كونها قابلة للمقابسة، إلا أنها لا يمكن تشبيه بعضها ببعض، ولا يكتسب العلم نفس الاسم إلا جدليا. ولو أننا حاولنا مقارنة العلوم عموما بالعلوم فى العالم الحديث خاصة، فسوف يصبح الاختلاف أكثر وضوحا عما يوجد من الاختلاف فى مقارنة العلوم التراثية ببعضها بعضا وتشترك على الأقل فى السمات الأساسية، وقد يبدو أحيانا من الوهلة الأولى أن مقصد الدراسة هو ذاته فى الحالتين، إلا أن المعرفة التى يُحصلها كل منهما شاسعة الاختلاف حتى ليتردد المرء بعد فحصها بدقة فى تحديد هويتها من بعض الجوانب.

وقد تفلح بعض الأمثلة فى توضيح المعنى. ونبدأ بتناول علم عام هو علم 'الطبيعة' كما يفهمه الأقدمون والمحدثون ولسنا فى حاجة إلى الخروج من العالم الغربى كى نرى الاختلاف العميق بين المفهومين. فاصطلاح 'الطبيعة' فى تأصيله يعنى بالضبط 'علم الطبيعة' دون أى تحفظ، وهو إذن العلم الذى يعالج القوانين العامة 'للسيرورة'، فالطبيعة والسيرورة فى الحق مترادفان، وقد كانت هذه هى الكيفية التى فهم بها اليونانيون وعلى الأخص أرسطو هذا العلم. وإذا كان هناك علوم أكثر تخصصا تعالج نفس هذا المستوى من الواقع فلا تعدو مجرد 'مواصفات' للطبيعة، تعالج شقا أو آخر من العلم معرفا فى دائرة أضيق. وها نحن نرى مغزى انحراف الدلالة الذى أخضع له العالم الحديث كلمة 'علم الطبيعة

'*physique*'، حين قصرها عسفا على علم واحد خاص دون غيره من العلوم، وجميعها علوم طبيعية على حدٍّ سواء، وهذا مثال على عملية الانقسامات التى نوهنا عنها باعتبارها إحدى سمات العلم الحديث. وذلك 'التخصص' الذى نبع من ميل العقل إلى التحليل، قد انجرف بقوة ليبلغ درجة يعجز عندها الواقعون فيه عن تصور علم يعالج الطبيعة فى كليتها. وبعض مثالب ذلك التخصص لم تمر مرور الكرام دون نقد، وخاصة ما يتعلق بضيق الأفق الذى ينتج عنها مباشرة، ولكن يبدو أن أولئك الذين يستوعبون هذا بوضوح يركنون إلى ضرورتها كشرٍّ لابد منه، نتج عن تراكم المعارف التفصيلية إلى درجة لا يأمل أحد فى استيعابها دفعة واحدة، وقد عجزوا من ناحية عن فهم أن تلك المعارف التفصيلية لا معنى لها فى حد ذاتها، ولا تستحق التضحية بالمعرفة التركيبية التى تترتب عليها، فالمعرفة التركيبية برغم اقتصارها على ما هو نسبى إلا أنها من مرتبة أعلى بمراحل من المعرفة التحليلية، ومن ناحية أخرى فشلوا فى رؤية استحالة توحيد تعددية هذه المعارف التفصيلية، وفشلهم راجع إلى أنهم يرفضون ربطها بمبدإ أعلى، أو بكلمات أخرى راجع إلى البداية من أسفل ومن الخارج، فى حين أن النهج العكسى هو الضرورى من أعلى ومن الداخل لو أردنا أن يكون هناك علم له قيمة فكرية.

وإذا كان على المرء أن يضاهى علم الطبيعة القديم لا بما يعنيه الغرب بهذا الاسم بل بكلية العلوم الطبيعية كما هى قائمة حيث إن هذا هو الذى يساويها حقا، فأول اختلاف نلحظه هو التقسيم الذى أصابها لتصبح تظاهرة 'لتخصصات' كثيرة غريبة عن بعضها البعض، ولكن هذا هو الجانب الظاهر فى المسألة، ولا يصح افتراض أن توصيل هذه العلوم المخصوصة ببعضها سيوصلنا إلى شىء يساوى علم الطبيعة القديم. والحق أن وجهة النظر هذه مختلفة تماما، وهنا يكمن الفارق الجوهرى بين المفهومين المشار إليهما سابقا، فالمفهوم التراثى يربط كل العلوم بالمبادئ التى نشأت منها، والتى هى تطبيقات مميزة لها، وهذا الارتباط هو ما يرفض المفهوم الحديث الاعتراف به. وقد كان 'علم الطبيعة' عند أرسطو ثانويا بالنسبة إلى 'الميتافيزيقا'، أو بكلمات أخرى معتمدًا على الميتافيزيقا، وقد كانت حقا تطبيقات فى عالم الطبيعة لمبادئ تعلو على الطبيعة وتنعكس فى قوانينها، ويمكن قول نفس الشىء عن علم الكون *cosmologie* فى العصور الوسطى. أما المفهوم الحديث فهو على

العكس يدعى أنه يجعل العلوم المختلفة مستقلة وتنكر كل ما يعلو عليها، أو تعلن على الأقل أنها غير قابلة للمعرفة وترفض التحسب لها، وهو الأمر الذى يحقق نفس الشىء فى الواقع. وقد ظهر ذلك الإنكار قبل تبلُّرها فى نظريات منظومية مثل ’الموضوعية‘ و’اللاأدرية *agnosticisme* ‘، ويمكن القول حقا إن هذه هى نقطة الانطلاق الحقيقية للعلم الحديث. ولكن لم يحدث قبل القرن التاسع عشر أن بدأ الناس فى التفاخر بجهلهم، فلا يعنى ادعاء أحد أنه لا أدرىٌّ إلا أنه جاهل، كما أنه ينكر كل المعارف الأخرى التى لا سبيل له إليها على المعرفة ككل، وقد كان ذلك خطوة إضافية فى انحطاط الغرب الفكرى.

ويحرمُ المفهوم الحديث العلوم من أى معنى أعمق، وحتى من كل اهتمامات المعرفة بتوخيه الفصل بين العلوم وبين أى مبدإ أعلى منها بحجة الحفاظ على استقلاليتها، ولا يمكن أن يؤدى بهم هذا إلا إلى طريق مسدود، بعد أن أغلقوا على أنفسهم عالما محدودا لا رجعة فيه[13]. ثم إن التطور الذى تحقق فى ذلك المجال ليس تعمقا فى المعرفة كما يَفترض البعض، ولكنها تبقى سطحية لا تنطوى إلا على شتات التفاصيل الذى نوهنا عنه والتحليلات العقيمة المُنهِكة، ويمكن لهذا التطور أن يستمر بلا نهاية دون أن يقترب من المعرفة الحقة فتيلا. ويجب أن ننوه أيضا إلى أن الغربيين لا يبحثون فى العلم كما يفسرونه من أجل ذاته ولكن همهم الأول ليس المعرفة حتى وإن كانت أدنى، بل من أجل التطبيقات العملية، ولإقناع أنفسهم بأن ذلك هو الصواب، ما علينا إلا أن نرى الهولة التى يخلط بها معظم معاصرينا العلم والصناعة، وعدد أولئك الذين من يُمثل لهم المهندس رجل العلم النمطى، ولكن هذا مرتبط بمسألة أخرى يتعين علينا أن نعالجها بتفصيل أكبر فيما يلى.

لقد افتقد العلم فى شكله الغربى عمقه وثباته، فقد كان ارتباط العلم القديم بالمبادئ يمكنه من المشاركة فى عصمتها إلى الحد الذى تسمح به مادتها، فى حين أن قصره حاليا على عالم التغير جعله لا يجد فيه أمرا مستقرا ولا نقطة ثابتة يؤسس عليها ذاته، ولا ينبثق من

---

13 وننوه إلى أن انشقاقا مماثلا قد حدث فى النظام الاجتماعى حينما ادعى المحدثون أنهم قد فصلوا السلطة الزمنية عن السلطة الدينية، ولا نعنى نفى اختلافهما حيث إنهما فى الواقع يتعلقان بمجالين مختلفين تماما كالميتافيزيقا والعلوم، ولكن نتيجة خطإ نابع من العقلانية التحليلية، فقد نسوا أن التمايز لا يعنى الانفصال. وقد فقدت السلطة الزمنية مشروعيتها بسبب هذا الفصل، وهذا بالضبط ما يمكن ان يُقال عن المستوى الفكرى للعلوم.

أى يقين مطلق فاختُزِلَ إلى احتمالات ومقاربات، أو إلى هياكل افتراضية بحتة ناتجة عن مجرد هوى فردى. ثم إنه باحتمال توصل العلم عن طريق ملتفة إلى استنتاجات معينة تبدو كما لو أنها اتفقت مع بعض معطيات العلوم التراثية، فسوف يكون من الخطإ أن نرى ذلك إثباتا للمعطيات وهو أمر لا تحتاج إليه، وسوف تكون محاولة إجراء تصالح بين وجهتى نظر تامتى الاختلاف، أو محاولة التوصل إلى توافقات مع نظريات افتراضية قد تُدحَضُ تماما قبل مرور أعوام طويلة هى مضيعة للوقت[14]. أما فيما يخص العلم الحالى فالاستنتاجات المعنية لا يمكن أن تُبنى إلا على افتراضات، بينما كانت فيما يتعلق بالعلوم التراثية ذات طبيعة مختلفة فهى نتائج حقائق عُرِفت بالبصيرة الفطرية، وهى لذلك معصومة فى المرتبة الميتافيزيقية[15]. والتجريبية الحديثة أيضا تتضمن الوهم الغريب الذى يقول إن نظرية ما يمكن أن تثبت بالوقائع، فى حين أن الوقائع ذاتها يمكن أن تفسَّر بأكثر من نظرية فى نفس الوقت، وقد تعرف بعض رواد المنهج التجريبى مثل كلود برنار على أنهم لا يستطيعون تفسير وقائع إلا عن طريق أفكار سابقة، وبدونها ستبقى 'وقائع خام' خالية من أى معنى أو قيمة علمية.

وحيث إننا انخرطنا فى الحديث عن التجريبية ننتهز الفرصة للإجابة على سؤال قد يطرأ فى هذا الأمر، فلماذا تلقت العلوم التجريبية تطويرا فى الحضارة الحديثة كما لم تتلق فى أية حضارة أخرى؟ والسبب هو أن هذه العلوم متعلقة بعالم الحس وعالم المادة، وهى تؤدى بالتالى إلى التطبيقات العملية المباشرة. وتطور هذه العلوم المصحوب بما نسميه عامدين 'بخرافة الوقائع *superstition du fait*' يتماشى تماما مع الميول الحديثة بصفة خاصة، بينما لم تجد العصور السابقة دوافع كافية للتعلق بها إلى حد إهمال المعارف الأسمى. ولابد من تفهم أننا لا نقول إن أى نوع من المعرفة يمكن أن يوصف بأنه غير مشروع فى حد ذاته، ذلك حتى لو كان من مرتبة أدنى، ولكن غير المشروع حقا هو سوء الاستخدام الذى

---

14 ويصدق الأمر نفسه فى نطاق عالم الدين فى أدبيات 'الدفاع عن الدين *apologetics*' التى تدعى أنها تتفق مع النتائج التى توصل إليها العلم الحديث، وهى مهمة خيالية تماما وأحد المهام التى تتطلب مراجعة مستمرة، وفيها مخاطرة بربط الدين بمفاهيم متغيرة زائلة، والذى يجب عليه أن يظل مستقلا عنها تماما.

15 ومن السهل ضرب الأمثلة على ذلك، وسوف نذكر منها فقط أكثرها وضوحا وهو مفهوم الأثير بين علم الكون الهندى وعلم الطبيعة الحديث.

يجعل هذا العلم يستهلك كل النشاط الإنسانى، كما نرى حاليا. ويمكن حتى أن نتصور علوما فى حضارة طبيعية مؤسسة على المنهج التجريبى، فى حال ارتباطه بالمبادئ شأن العلوم الأخرى، وهكذا يكتسب قيمة فكرية حقيقية، وإذا لم يكن ذلك قد حدث فى الواقع فذلك لأن الانتباه كان متجها لوجهة أخرى، وأيضا بسبب أنه لو كانت المسألة هى دراسة عالم المحسوس إلى المدى الذى يهمنا، فإن المعطيات التراثية تتيح أن تجرى الدراسة بشكل أكثر إثمارا بمناهج أخرى ومن وجهة نظر أخرى.

لقد ذكرنا سابقا أن من خصائص العصر الحاضر استغلال كل شىء كان مهملا باعتباره قليل الأهمية ولن يُضَيِّعَ فيه الناس جهدهم وطاقتهم، إلا أنه مُقدر له أن يتجلى قبل نهاية هذه الدورة، حيث إن الأشياء المقصودة لها مكانها ضمن الاحتمالات المقدرة فى طياتها، وهذه هى خاصة حال العلوم التجريبية التى ظهرت فى الوجود فى القرون الأخيرة. وهناك حتى بعض العلوم الحديثة تمثل حرفيا بقايا علوم قديمة لم تعد مفهومة، ففى أحد مراحل الانحطاط انفصل أسفل جزء من تلك العلوم عن بقيتها، ثم إن ذلك الجزء تضخم بفظاعة ليعمل كنقطة بداية لتطور مختلف تماما، وفى اتجاه يتسق مع الميول الحديثة، ونتج عن ذلك تكوُّن علوم ليس لها شبه بما سبقها. فعلى سبيل المثال من الخطإ الادعاء كما يحدث حاليا بأن علم النجم *astrology* والخيمياء *alchemy* هما اللذان أصبحا علم الفلك وعلم الكيمياء الحديثين، وحتى لو كان ذلك يحمل عنصرا من الحقيقة من الناحية التاريخية، فهى تحتوى فى الواقع على جزء من الحقيقة الذى أشرنا إليه لتوِّنا، فإذا كانت العلوم المتأخرة قد أخذت عن العلوم القديمة بمعنى ما فليس ذلك 'بالتطور' ولا 'التقدم' كما يجرى الادعاء، ولكن أجدر بالانحطاط. ويبدو أن هذا يستلزم شرحا أكثر.

فأولا لابد من مراعاة أن إسناد معنى مختلف إلى اصطلاحى 'علم النجم' و'علم الخيمياء' هو أمر حديث نسبيا، وقد كان الإغريق يستخدمون الكلمتين بالترادف لكى يقصدوا بهما المجال الذى يغطيه الاثنان معا. وها نحن نرى من النظرة الأولى أن بين يدينا حالة أخرى من حالات الانقسام التى نتجت عن 'التخصص' بين ما كان أصلا ينتمى إلى علم واحد. ولكن هناك اختلاف فى هذه الحالة وهو أن أحد الأجزاء وهو الجزء الذى يمثل الجانب الأكثر مادية من العلم المذكور، قد اتخذ تطورا مستقلا، بينما اختفى الجزء الآخر

تماما. وهذا حقيقى إلى درجة أننا لا نعرف اليوم ماذا كان عليه ’علم النجم‘ القديم، وأن أولئك الذين حاولوا إعادة تكوينه لم يخرجوا بشىء إلا بصورة ممسوخة عنه، كما انكب البعض على محاولة جعله مقابلا لعلم تجريبى حديث، باستخدام إحصاءات وحساب احتمالات، وهو منهج منبثق عن وجهة نظر يستحيل أن تنتمى إلى العالم القديم أو عالم العصر الوسيط. وانكب آخرون على إعادة ترميم ’فن التنجيم‘ الذى وجد من قبل، وقد كان مجرد انحراف للعلم المذكور وهو فى طريقه إلى الكمون، ويمكن أن يُنظر إليه باعتباره تطبيقا متدنيا لا يسترعى الانتباه الجاد، كما يُرى حتى الآن فى حضارات الشرق.

وربما كانت حالة الكيمياء أكثر وضوحا وتمييزا، وجهل المحدثين بالخيمياء لا يقل عن جهلهم بعلم النجم. والخيمياء الحقة كانت بالضرورة أحد علوم الكون، كما أنها كانت تنطبق فى نفس الوقت على المستوى الإنسانى، وذلك بفضل التشابه بين الجرم الأكبر *macrocosme* والجرم الأصغر *microcosme*، وعدا ذلك فقد أنشئ خصيصا ليكون وسيلة للانتقال إلى مجال روحى بحت، وقد أضفى ذلك على تعاليمه قيمة رمزية ومعنى علويا مما جعله أحد أكمل نماذج ’العلوم التراثية‘. ولم تأت الكيمياء الحديثة من هذا العلم، والتى لا شبه بين أية جوانب فيهما، فالكيمياء ليست إلا فساداً اعترى ذلك العلم، وفى أكثر التعابير انضباطا فإنه انحراف عن ذلك العلم، ربما نشأ فى العصر الوسيط، نتيجة عدم فهم بعض الذين لم يستطيعوا النفاذ إلى معنى الرموز الحقيقى، وأخذوا كل شىء بحرفيته. اعتقاداً بأنه لا يوجد ما هو غير العمليات المادية، وقد انطلقوا إلى تجريب مضطرب، ومن قبيل السخرية أن هؤلاء الأشخاص هم من يطلق عليهم الخيميائيون ’النانخون فى النار‘ و’حارقو البخور‘ والذين هم أسلاف كيمائيو العصر الحاضر، وهكذا نرى كيف أن العلم الحديث نما من أنقاض العلوم القديمة، ومن المواد التى لفظتها، وتركت للجهلاء والعوام. ونضيف إلى ذلك أن من يُسمون ’بمستعيدى أو مجددى الخيمياء‘، والذى يوجد منهم عدد من معاصرينا ما فتئوا مستمرين فى تمديد نفس الانحراف، وأن بحثهم بعيد عن الخيمياء الحقيقية بُعد المنجمين الذين نوهنا عنهم عن علم النجوم القديم. ولهذا يحق لنا تأكيد أنه لا سبيل للمحدثين إلى علوم الغرب التراثية التى فُقدت.

وسوف نقتصر على تلك الأمثلة القليلة، بالرغم من سهولة ضرب أمثلة أخرى من

مجالات مختلفة بعض الشيء، لكى نبين نفس الانحطاط فى كل أين، فعلى سبيل المثال يمكن أن نبين أن علم النفس كما يُعرف اليوم أى بصفته دراسة الظواهر العقلية هو منتج مباشر من العقلية التجريبية الأنجلوساكسونية فى القرن الثامن عشر، ووجهة النظر التى تناظرها كانت كمًّا مهملا فى العالم القديم وحتى لو أخذت فى الاعتبار بالصدفة، فلم يكن أحد ليحلم بأن يجعل منها علما مخصوصا، حيث يتحول كل ما فيه من قيمة ويُستوعب ليتمثل من منظور أعلى. ويمكن أيضا أن نبين فى مجال مختلف تماما أن الرياضة الحديثة لا تمثل إلا القشرة الخارجية 'البرَّانيّة' للرياضة الفيثاغورية، ففكرة الأرقام القديمة قد أصبحت غير مفهومة تماما للمحدثين، ذلك لأن الشطر الأعلى من العلم قد اختفى تماما فى هذه الحالة أيضا والذى كان يفيض عليه صبغته التراثية وبالتالى قيمتة الفكرية، وهى حالة شبيهة للغاية بحالة علم النجم. ولكن سيكون من الممل المرور على العلوم واحدًا واحدا، ولذلك نعتبر أننا قد أوضحنا طبيعة التغير التى يدين بها الغربيون لأصولهم، وهو تغير مناقض تماما 'للتقدم'، وليس إلا انتكاس حقيقى للذكاء. وسوف نعود الآن إلى اعتبارات ذات طبيعة عامة تتعلق بالغاية التى تخدمها كل من العلوم التراثية والعلوم الحديثة، لنبين الاختلاف العميق القائم بين الغاية الحقيقية لكل منهما.

فتبعا للمفهوم التراثى يصبح العلم مهما لا فى حد ذاته، ولكن كامتداد أو كفرع ثانوى للنظرية، والتى جوهرها الميتافيزيقا البحت[16]، والواقع أن كل علم مشروع طالما ظل فى نطاق مكانته بطبيعة وجوده، ولكن من السهل أن نفهم أن المعرفة الأدنى ستفقد كثيرا من الاهتمام بها لدى من توفر له سبيل معرفة أسمى. وتظل تلك المعرفة الدنيوية مثار اهتمام فقط فى حدود أنها متغير واحد من متغيرات المعرفة المتعلقة بالمبدإ، أى بمدى قدرتها على انعكاس هذه المعرفة فى عالم محتمل من ناحية، ومن ناحية أخرى قدرتها على أن تهدى إلى هذه المعرفة المتعلقة بالمبدإ ذاتها، والتى يجب ألا يغرب عنها النظر فيما نحن بصدده، ولا أن نضحى بها فى سبيل اعتبارات عارضة.

وهاتان هما الوظيفتان المتكاملتان الجديرتان بالعلوم التراثية، فهما من ناحية تطبيقات

---

16 وهذا ما ثل فيما يدعى *أوبافيدا* التى تطبق فى الهند على بعض العلوم التراثية، وتبين سلسلة خضوعها *للفيدا*، أى المعرفة المقدسة الحقة.

للنظرية، وتجعل من الممكن الربط فيما بين كل مستويات الواقع وإدماجها فى مُرَكَّبٍ كلِّىٍ واحد، ومن ناحية أخرى تصبح إعدادا للترقى فى هيكل المعرفة، ومسارا إلى ارتياد طريقها على الأقل بالنسبة إلى البعض بقدر ملكاتهم الخاصة، وتبعا لمستويات الوجود التى يرجعون إليها، حيث توجد دعائم كثيرة يمكن الاعتماد عليها للوصول إلى الفكر البحت[17]. ومن الجلى أن العلوم الحديثة عاجزة عن القيام بأى من الغايتين، وهذا هو السبب الذى يجعل منها مجرد علوم دنيوية ولا غير، أما العلوم التراثية فهى منطوية بشكل فعال مع 'العلوم المقدسة' من خلال صلتها بالمبادئ الميتافيزيقية.

وتواجد الغايتين اللتين ذكرنا معا لا يعنى التناقض ولا الدائرة المفرغة بينهما كما يفترض الذين ينطلقون من وجهة نظر سطحية، وهذه نقطة تتطلب بعض الإسهاب. ويمكن أن تفسر بأن هناك وجهتى نظر إحداهما تنازلية والأخرى تصاعدية، وتناظر الأولى المعرفة المنبثقة من المبادئ متجهة إلى التطبيقات التى تتناءى عنها، والأخرى تعنى استيعابا تدريجيا لهذه المعرفة يبدأ من الأسفل إلى الأعلى، أو بالأحرى من الخارجى إلى الداخلى. ولذلك فإن التساؤل عما إذا وجب على العلم أن يبدأ من أعلى أم من أسفل لا يجدى، وكذلك التساؤل عما إذا كان سيؤسس على معرفة المبادئ أم على معرفة العالم المحسوس، ويمكن أن يُطرح السؤال من وجهة نظر الفلسفة 'الدنيوية'، ويبدو أنه قد طُرح بالفعل فى ذلك المجال فى اليونان القديمة، ولكنه غير وارد فى 'العلوم المقدسة'، والتى يمكن فقط أن تؤسس على المبادئ الكلية، والسبب الذى يجعل التساؤل المذكور لا نفع فيه هو أن العامل الأولى هنا هو البصيرة الفطرية، وهى أكثر الأشكال مباشرة للمعرفة وأعلاها، ومستقل تماما عن ممارسة أية ملكة من المستوى الحسى أو حتى المستوى العقلى. ويمكن فقط أن تتخذ العلوم موقعها من 'العلم المقدس' عن طريق الذين يمتلكون المعرفة المتعلقة بالمبدإ تماما، والمؤهلون لإجراء التلاؤمات المناسبة للزمان والمكان وفقا لأصولية صارمة. وحين تقوم هذه العلوم، فإن تعاليمها قد تتبع الطريق العكسى، فهى تعمل 'كتصوير' للنظرية النقية، والتى

---

17 وقد تحدثنا فى دراستنا عن جَوَّانِيَّة دانتى عن رمزية السُلَّم وقوائمه التى تناظر علوما معينة فى كثير من الحضارات التراثية، وتشير فى نفس الوقت إلى حالات من الوجود، وهذا يعنى بالضرورة أن تلك العلوم لم تكن تعد علوما 'دنيوية' كما هو الحال فى العالم الحديث، ولكنها تسمح بالانتقال إلى مجال روحى، يضفى عليها معنى العهد المتوارث الحقيقى.

يسهل استيعابها لدى بعض العقول، وتضفى عليها حقيقة أنها تتعلق بعالم الكثرة قدرة على اعتبار وجهات نظر غير محدودة، تتلاءم مع عدد غير محدود من الملكات الفردية لأولئك الذين لازالت عقولهم رهينة عالم الكثرة. وقد تختلف الطرق التى تؤدى إلى المعرفة تماما فى المستويات الدنيا منها، ولكنها تتقارب مع بعضها البعض كلما وصلت إلى معرفة أسمى. وليس معنى هذا أن تلك الدرجات الإعدادية هى ضرورية مطلقا، حيث إنها مجرد طرق محتملة لا شبه فيها بالغاية المتوخاة، فمن الممكن لبعض الأشخاص الذين تميل عقولهم إلى التأمل أن يصلوا مباشرة إلى الاستبصار دون أية معونة من هذ النوع[18]، ولكن هذه حالة استثنائية، إلا أن الدرجات الإعدادية مقبولة عموما كضرورة للترقى بالتدريج فى الاتجاه المتصاعد. والمسألة برمتها يمكن أن تُصور بالصورة التراثية 'للدائرة الكونية' فالمحيط يوجد فقط بوجود المركز، ولكن الكائن الذى يقف عند المحيط لابد وأن يبدأ حركته من المحيط، أو بصورة أدق من النقطة التى يجد فيها نفسه، ثم إنه يتبع المحور الذى يقوده إلى المركز. ثم إن حقائق المستويات الأدنى يمكن أن تُتخذ كرموز لما يعلو عليها من مستويات، ويمكن أن تكون بهذا 'دعامات' يستعين بها المرء على التوصل لفهم هذه المستويات، وهذه الحقيقة تجعل من الممكن لأى علم كان أن يصبح علما مقدسا، وتضفى عليه معنى 'جَوَّانِيًّا' أعلى وأعمق مما تحوى من معنى فى حد ذاتها[19].

ويستطيع أى علم كان اتخاذ هذا السمت أيا كانت مادته، وبشرط واحد هو أن يكون مبنيا على وجهة نظر تراثية، ومن الضرورى أن يظل نصب أعيننا درجات أهمية العلوم المختلفة فى هيكلها حسب تراتب الحقائق المختلفة التى تتدارسها، ولكن أيا كانت المرتبة التى تحتلها فإن سماتها ووظيفتها متشابهة بالضرورة فى المفهوم التراثى. وما يصدق فى العلوم يصدق أيضا فى الفنون، حيث إن كل فن يستطيع الوصول إلى قيمة رمزية حقيقية، تمكنه من العمل كدعامات للتأمل، ولأن قواعده انعكاسات وتطبيقات للمبادئ

---

18 وهذا هو السبب الذى يجعل *البراهمة* فى المذهب الهندوسى يتوجهون بعقولهم دائما نحو المعرفة العليا، أما *الكشاطريا* فيكرسون أنفسهم لدراسة المراحل المختلفة التى تتوخى التدريج.

19 وهذا هو الغاية من رمزية علم النجوم على سبيل المثال، والتى تستخدم عموما فى نظريات تراثية مختلفة، وما نقوله هنا يمكن أن يشير إلى طبيعة علم النجوم القديم.

الأساسية، مثله مثل القوانين التى تدرسها تلك العلوم، فهناك إذن فى كل حضارة طبيعية ’فنون تراثية‘، ولكن معرفة الغرب بها أقل من معرفته ’بالعلوم التراثية‘[20]، والحق أنه ليس هناك ’عالَم دنيوى‘ يستطيع أن يتصدى بأى طريق كان ’لعالم مقدس‘، فليس هناك إلا ’وجهة نظر دنيوية‘، وليست حقا إلا وجهة نظر الجهل[21]. ولهذا كانت ’العلوم الدنيوية‘، عند المحدثين أجدر بأن تكون ’معرفة جاهلة‘ ملتبسة متدنية تغلق على نفسها فى أسفل مستويات الحقيقة، وجاهلة بكل ما يكمن وراءها، ولا غاية لها أكثر من انتفاخ ذاتها، ولا علم لها بأى مبدإ يضفى عليها مكانة مشروعة أيا كان تواضعها فى مراتب المعرفة ككل. وقد انغلقت تلك المعرفة الجاهلة فى العالم النسبى الضيق الذى ادعت أنها تكافح للاستقلال عنه، وكسرت طوعا كل روابطها بالحقيقة المتعالية والمعرفة السامية، فتأتى من هباء وتروح فى هباء.

ونحسب أن هذا المسح كافٍ لبيان جسامة قصور العالم الحديث فى مجال العلم، وكيف أن ذلك العلم الذى افتُتِنوا به لا يمثل إلا انحرافًا عن العلم الحقيقى وسقطةً منه، والذى هو نظير تام لما أسميناه ’العلم المقدس‘ أو ’العلم التراثى‘. والعلم الحديث الذى نبع من تحديد تعسفى للمعرفة وقصرها على أحط مستوياتها مما هو مادى وعقلانى، بمعنى أنه معتمد على ما يصل إليه العقل الفردى، وهو ما يطلق عليه بالفرنسية ‘ المذهب العقلانى *rationalisme*، وقد فقد بذلك التحديد ونتائجه التى تمخض عنها كل القيمة العقلية، طالما أضفينا على كلمة ’عقلية‘ معناها الكامل الحقيقى، ورَفَضنا المشاركة فى خطإ ’العقلانيين‘ فى تحويل النظر إلى العقل البصير الخالص على أنه العقل الفردى أو ما يصل إلى نفس الشىء، ألا وهو إنكار البصيرة الفطرية. وترجع جذور هذا الخطإ وكثير غيره من الأخطاء الحديثة وسبب كل انحراف للعلم كما ذكرنا سابقا إلى ما يمكن أن يسمى ’فردية‘، وهو منحى لا يتميز عن اللاتراثية ذاتها، وتجلياته فى كل المجالات تشكل واحدا من أهم عوامل

---

20 وفن البنائين الأحرار فى العصر الوسيط مثال مدهش لهذه الفنون التراثية، والتى كانت تعنى ممارسته معرفة حقيقية بالعلوم المناظرة له.

21 ولكى نرى الصدق فى هذا الأمر يكفى ملاحظة الوقائع التالية، لقد أصبح ’علم نشأة الكون *cosmogony*‘ وهو أحد العلوم الأكثر قداسة وله مكانته فى الكتب المنزلة بما فيها التوراة اليهودية وصار موضوعا لفرضيات ’دنيا‘ فى الغرب، وحقل العلم واحد ولكن وجهتا النظر مختلفتان تماما.

الاضطراب فى زمننا، ولذلك سنتدارس هذه الفردية بشى من التوسع.

5. الفردية

إننا نعنى بالفردية إنكار أى مبدإ أعلى من الفرد، وما جرَّه ذلك من اختزال كل فروع الحضارة فى كافة المجالات إلى عناصر إنسانية بحتة، وتساوى الفردية تماما ما أسمى 'بالنزعة الإنسانية' فى بداية عصر النهضة، وهى أيضا سمة مميزة 'لوجهة النظر الدنيوية' كما طرحناها آنفا. والحق أن هذه جميعا مسميات مختلفات لنفس الشىء، كما بينَّا أيضًا أن هذه النظرة 'الدنيوية' تتفق مع النظرة اللاتراثية التى تكمن فى جذور كافة الميول الحديثة. وبالطبع لا يعنى هذا أن هذه النظرة حديثة تماما، فقد ظهرت سلفا فى أشكال واضحة فى حقب أخرى، ولكن تجلياتها كانت دائما محدودة المجال، كما كانت بعيدة عن التوجه الرئيس، ولكنها لم تصل أبدا إلى الحد الذى تجتاح فيه حضارة بأكملها كما حدث إبان القرون الأخيرة فى الغرب. وما لم يظهر قط قبل ذلك هو إقامة حضارة كاملة على أمر سلبى تماما، وهو ما يمكن أن يسمى حقا بغياب المبدإ، وهذا هو ما يضفى على العالم الحديث سماته الشاذة، ويجعله أقرب إلى نوع من الوحشية، والتى لا سبيل إلى فهمها إلا باعتبارها مناظرة لنهاية حقبة دورية كما نوهنا سلفا. والفردية بتعريفها هذا هى السبب القاطع فى الانحطاط الحالى للغرب، وذلك لأنها منطلق تعظيم أحط ما فى الإنسان من إمكانات، أى تلك الإمكانات التى لا تستلزم تدخل أى عنصر فوق إنسانى، والتى يمكن أن تتوسع بحرية فى غياب كل المبادئ فوق الإنسانية، والتى هى محور كل فكر وروحية أصيلة.

والفردية تعنى فى المقام الأول إنكار الحدس الفكرى، من حيث إنه ملكة فوق فردية، وإنكار كل المعرفة التى هى المجال الحقيقى لتلك الملكة، أى الميتافيزيقا بمعناها الحقيقى. ولهذا كان كل ما يفهمه الفلاسفة الغربيون من كلمة ميتافيزيقا إذا هم سلّموا بوجود شىء بهذا الاسم هى أمور غريبة تماما عن الميتافيزيقا الحقيقية، وليس فيها إلا

هياكل عقلانية أو افتراضات تخيلية، وهى بالتالى مفاهيم فردية بحتة، ينتمى معظمها إلى مجال ’الطبيعيات‘ وحتى لو طرحت أية مسألة قد تنتمى حقا إلى المستوى الميتافيزيقى فإن الطريقة التى تتناولها وتعالجها ستختزلها إلى مستوى ’الميتافيزيقا المزيفة‘، وتحجب أى حل حقيقى مشروع. ويبدو حقا أن الفلاسفة أكثر اهتماما بخلق المشاكل مهما كانت اصطناعية وتخيلية من اهتمامهم بحلها، وهذا مجرد جانب واحد من التولُّه بالبحث لذاته والولع بالعناء التافه فى كلا المجالين الفكرى والجسمانى. كما أن هناك اعتبارا مهما يهيم به أولئك الفلاسفة ألا وهو وضع اسمهم على ’نظام‘ ما، أى على مجموعة من النظريات المحدودة ضيقة النطاق، والتى ستنتمى قصرا إليهم وتصبح من إبداعهم، ومن هنا جاءت الرغبة فى الأصالة[22] بأى ثمن حتى ولو ضحوا بالحقيقة فى سبيل هذه ’الأصالة‘ فتزداد شهرة الفيلسوف عندما يخترع خطأ جديدا، أكثر مما تزداد بترديد حقائق سبق لغيره أن قال بها. وهذا الشكل من الفردية هو الذى يولِّدُ العديد من ’النظم‘ التى يناقض بعضها بعضًا حتى لو كانت غير متناقضة فى ذاتها، وهى ظاهرة توجد بين الدارسين والفنانين المحدثين، ولكن ربما كانت الفلسفة هى التى تنبع منها الفوضى الفكرية بشكل أكثر وضوحا.

ولا يمكن فى الحضارات التراثية أن يدَّعى أحد امتلاكه لفكرة ما، وهو إذا فعل ذلك فإنه يحرم نفسه من كل مصداقية ومرجعية ويختزلها إلى مستوى الأوهام التى لا معنى لها، فإذا كانت الفكرة صحيحة فإنها تنتمى بالتساوى إلى جميع من يستطيعون فهمها، وإذا كانت زائفة فلا قيمة للتفاخر باختراعها. والفكرة الحقيقية لا يمكن أن تكون ’جديدة‘ حيث إن الحقيقة ليست ناتجة عن العقل الإنسانى ومستقلة عنه، وكل ما علينا هو أن نتعرف عليها، وليس خارج هذه المعرفة إلا الخطأ، ولكن هل يهتم المحدثون كثيرا بالحقيقة أو يعلمون كنهها؟ وهنا مرة أخرى تفقد الكلمات معناها الحقيقى فيما يتصل ببعض الناس مثل البراجماتيين المعاصرين، والذين يذهبون إلى حد الإفراط فى إطلاق كلمة ’حقيقة‘ على كل ما يعنى الفائدة العملية أو الوقائع، وهو أمر غريب عن المستوى الفكرى. والانحراف المنطقى الناتج عن الانحراف الحديث هو بالضبط إنكار ’الحقيقة‘ وإنكار الذكاء الذى يسعى إليها. ولكن لنكف عن التوقعات ونقول عن هذه النقطة إن نوع الفردية الذى تناولناه لتوِّنا

22 ومعنى الأصالة هنا هو الاستخدام الشائع وليس التراثى، والذى يعنى الأسبقية والتفرد.

هو المصدر الرئيس للوهم عن أهمية ما يوصف 'بعظماء الرجال' أو 'العباقرة' بالمعنى القريب للكلمة، ولا يكاد هذا الوهم يساوى شيئا، ولا قدرة له على تعويض المعرفة الحقة.

وحيث إننا نتكلم عن الفلسفة فسوف نذكر بعض نتائج الفردية فى هذا المجال دون أن ندخل فى كل التفاصيل، فأولا جرى إنكار العقل البصير وتبعه رفع لافتة العقل الجدلى على كل ما هو غيره، وعوملت تلك الملكة النسبية الإنسانية الصرف باعتبارها أعلى ما فى الذكاء. وهذه هى العقلانية التى كان مؤسسها الحقيقى ديكارت. وتحديد الذكاء هذا لم يكن إلا المرحلة الأولى، فالعقل ذاته قد استخدم تدريجيا لخدمة الأغراض العملية بشكل رئيس بالتناسب مع التطبيقات التى بدأت تسود على العلوم التى لا زالت تحتفظ بسمة فكرية، وقد كان ديكارت أكثر اهتماما بتلك التطبيقات منه بالعلم البحت. والفردية ستقود إلى الطبيعية لا محالة، حيث إن كل ما يكمن خارج الطبيعة بعيد عن متناول ذلك الفرد، والطبيعية وإنكار الميتافيزيقا هما فى الحقيقة شىء واحد، وبمجرد إنكار البصيرة الفطرية فلا إمكان لتحقق الميتافيزيقا، فى حين عكف البعض على اختراع 'ميتافيزيقا مزيفة' من نوع أو آخر، بينما انهمك آخرون فى صراحة أعظم فى تأكيد استحالتها، ومن ذلك نشأت 'النسبية' فى كافة أشكالها، سواء أكانت 'نقد' كانط أم 'وضعية' أوجست كونت، وحيث إن العقل الجدلى فى ذاته نسبى تماما ويمكن أن يتعامل بصلاحية فقط مع مجال نسبى مثله، فإن من الصحيح أن 'النسبية هى الناتج الوحيد المنطقى للعقلانية'. وبهذه الوسيلة كان على العقلانية أن تصل إلى حتفها فى 'الطبيعية' و'السيرورة' كما ذكرنا سلفا، وهما فى الواقع مترادفان، فالطبيعية المنضبطة فى أفضل أحوالها يمكن فقط أن تصبح واحدة من 'فلسفات السيرورة' التى نوهنا عنها، والنمط الحديث منها هو التطورية، وكانت هذه فى النهاية هى التى انقلبت على العقلانية، وذلك باتهام العقل بعدم الكفاءة فيما يتصل بماهية التغير والكثرة من ناحية، ومن ناحية أخرى فيما يتصل بالتعقد اللانهائى للظواهر المحسوسة. وهذا فى الواقع هو موقف اتخذه أحد أشكال التطورية، وتحديدا موقف 'الحدسية البرجسونية' التى ليست فى الواقع أقل فردية ولا عداوة للميتافيزيقا من العقلانية ذاتها، وبالرغم من عدالة نقدها للعقل فإنها تهبط حتى إلى أسفل منه عندما تعتمد على ملكة تحت عقلية، أى حدس واهن التوصيف مختلط بالخيال والغريزة والانفعال. ومما له مغزى أنه لم يعد هناك تساؤل

عن ′الحقيقة′ ولكن عن ′الواقع′ فقط، وهو مُختَزَل إلى مستوى المعقوليات فحسب، ومفهوم باعتباره أمرا متغيرا وغير مستقر بالضرورة، ومثل هذه المذاهب تقصر الذكاء على أسفل مستوياته، وسيُنكَرُ العقل نفسه إلا فيما يجوز فيه تشكيل المادة للأغراض الصناعية. وبعد هذا لن تبقى إلا خطوة واحدة هى الإنكار الكامل للذكاء والمعرفة معا، وإحلال ′المنفعة′ محلِّ ′الحقيقة′. وقد كانت هذه الخطوة هى البراجماتية أو الذرائعية التى أشرنا إليه آنفا، وهنا لن نكون حقا فى مجرد النطاق الإنسانى كما هو الحال فى العقلانية، حيث إن الاعتماد على ′ما تحت الوعى′ يؤدى إلى الانقلاب الكامل للتدرج الطبيعى ويهبط بنا حقًّا إلى مستوى تحت إنسانى. وهذا فى شكله العام هو مصير الفلسفة ′الدنيوية′ التى تدعى أنها حددت كل المعرفة بأفقها فحسب، وكان عليها أن تدعس ما عداها، وقد فعلت، وحينما كان هناك معرفة سامية لم يكن شىء من ذلك ليحدث، فالفلسفة القديمة كانت على الأقل ملتزمة باحترام ما لا تعرف ولكنها لا تنكر وجوده، ولكن عندما اختفت تلك المعرفة السامية وأصبح إنكارها أمرا واقعًا فقد قام عكسها، والذى كان يتفق والأمر الواقع فى شكل نظرية، ومنها انبثقت كل الفلسفات الحديثة.

لقد أطلنا الحديث عن الفلسفة، والتى لا يجوز إسناد أهمية كبرى إليها أيا كانت المكانة التى تحتلها فى العالم الحديث، ومن وجهة نظرنا فهى مهمة فى حدود أنها تعبر بطلاقة عن الميول التى سادت فى فترة أو أخرى، وليس من ناحية أنها تخلق تلك الميول حقا، حتى لو قيل إنها تساعد على توجيهها إلى حد ما فهى تفعل ذلك بشكل ثانوى فقط، وحينما تكون الميول قد تشكلت بالفعل. وهكذا فمن المؤكد أن كل الفلسفة الحديثة تدين لديكارت بأصولها، ولكن النفوذ الذى مارسه ديكارت على معاصريه ثم على من تبعهم هو نفوذ لا يتعلق بالفلاسفة فقط، ولم ليكن ممكنا ما لم تكن مفاهيمه متفقة مع ميول موجودة وسائدة بالفعل بين معاصريه، فالعقلية الحديثة منعكسة فى الديكارتية، وقد رأت فيها معرفة أوضح بذاتها عما كانت تعرفه قبلا. زد على هذا أنه لو وصلت أية حركة فى أى مجال إلى ما وصلت إليه الديكارتية فى مجال الفلسفة فهى دائما نتائج أكثر منها أسبابا، وليست أمرا تلقائيا ولكنها ناتجة عن نشاط تحتى أوسع انتشارا. وإذا كان هناك رجل مثل ديكارت يمثل الانحراف الحديث فإن المرء قمين بأن يقول من وجهة نظر معينة أنه تشخيص للعصر، ويبقى من

الصحيح أنه ليس المسئول الأول ولا الوحيد عن هذا الانحراف، وأن على المرء أن يغوص فى ماض بعيد بحثا عن جذور هذا الانحراف. وبنفس الطريقة نجد أن ’عصر النهضة‘ و’عصر الإصلاح‘ اللذين يُعتبران عادة أول تجلٍّ عظيم للعقلية الحديثة قد أكملا القطيعة مع التراث أكثر مما تسببا فيها، وبالنسبة لنا نعتبر أن بداية هذه القطيعة تعود إلى القرن الرابع عشر، ويجب أن يكون هذا التاريخ وليس ما بعده بقرن أو قرنين هو البداية الحقيقية للعصر الحديث.

وتستحق تلك القطيعة مع التراث تعليقا حيث إن ذلك بالضبط هو الذى أنتج العالم الحديث، ويمكن أن نجمل القطيعة هذه تحت عنوان واحد هو ’معارضة الروح التراثية وإنكار التراث‘، ومرة أخرى تطالعنا الفردية. وهذا حقا يتسق بالتمام مع كل ما قيل سلفا، حيث إن الحدس الفكرى والنظرية الميتافيزيقية البحت هما المبدأ لكل الحضارات التراثية، وبمجرد إنكار المبدإ فلابد من إنكار كافة نتائجه على الأقل بشكل ضمنى، ويتحطم بهذا كل ما يستحق أن يسمى تراثا بضربة واحدة. ولقد رأينا كيف تمت هذه العملية فيما يتعلق بالعلوم، ولن نعود إليها ولكن نتخطاها إلى جانب آخر من المسألة، تخطف البصر فيه تجليات النظرة اللاتراثية بشكل أكثر وقعا حتى إن النتائج التى نبعت منها قد أثرت تأثيرا مباشرا على الغالبية العظمى من أهل الغرب. والواقع أن العلوم التراثية للعصور الوسطى كانت مقصورة على صفوة غير كبيرة العدد، كما كان بعضها حكرا على مدارس بالغة الخصوصية ومغلقة فى وجه غير الأكفاء والأدعياء والفضوليين، وقد كانت بما هى عليه مدارس أسرارية جَوَّانيَّة حقيقية بمعنى الكلمة، ولكن كان هناك أيضا جزءٌ مشترك من التراث مشاعا بين الجميع بلا تمييز، وهذا الشق الخارجى هو الذى نود الحديث عنه الآن. لقد ارتدى تراث الغرب من الظاهر فى هذه الحقبة شكلا دينيا، وكانت تمثله الكنيسة الكاثوليكية، وسوف نتأمل إذن فى إطار عالم الدين الثورة التى قامت ضد المذاهب التراثية، وهى ثورة تسمت بالبروتستانتية بعد أن تبلورت، وليس من الصعب رؤية تجلى الفردية فيها مطبقة فى مجال الدين. فالبروتستانتية مبنية على مجرد النفى، شأنها فى ذلك شأن العالم الحديث، وجوهر الفردية هو نفى المبادئ، ويمكن أن نرى فيها مثلا صارخا آخر على حالة الفوضى والتحلل التى نجمت عن هذا الإنكار.

وتعنى الفردية بالضرورة رفض أية سلطة أعلى من الفرد، كما تعنى رفض أية ملكات للمعرفة أعلى من العقل الفردى، وهذان السلوكان لا ينفصلان. وقد كان على النظرة الحديثة إذن أن ترفض كافة أشكال السلطة الروحية بالمعنى الحقيقى، أى السلطة المبنية على مرتبة فوق إنسانية، كما رفضت فى خضم ذلك كل المؤسسات التقليدية، أى أية مؤسسة تقوم بشكل جوهرى على هذه السلطة أيا كان شكلها، فالشكل سيتغير حتما بين حضارة وأخرى. وهذا ما حدث فى الواقع، فقد أنكرت البروتستانتية سلطة المؤسسة المنوطة بتفسير التراث الدينى للغرب بشكل مشروع وادعت أنها تقيم بدلا منها 'التأويل أو النقد الحر *criticisme libre*' بما يعنى الخروج بأى تفسير كان لأحكام خاصة بما فيها أحكام الجهلة وغير الأكفاء، وقائم قصرا على مزاولة العقلية الإنسانية. وما حدث فى عالم الدين إذن كان مشاكلا للدور الذى لعبته العقلانية فى الفلسفة، فقد فتح الباب لكافة أنواع المناقشات والخلافات والانحرافات، ولم تكن النتيجة إلا شتاتا بين طوائف شتى ما فتئت تتكاثر، ولا يمثل كل منها إلا رأيا شخصيا لفرد أو لأفراد بعينهم. وحيث استحال الوصول إلى تفاهم فى هذه الظروف حول مسألة 'المذهب' فقد أزيح الأمر بكامله إلى الخلفية فى حين برز الجانب الثانوى من الدين وهو 'الأخلاق'، ومن هنا بدأ الانحطاط إلى النزعة الأخلاقية التى تُمّيِّز البروتستانتية المعاصرة. وهنا تجلت ظاهرة موازية لتلك التى أشرنا إليها فى حالة الفلسفة كنتيجة مباشرة لتحلل 'المذهب' واختفاء الجانب الفكرى من الدين، ولم يكن على الدين إلا أن يتقهقر إلى المستوى الانفعالى انطلاقا من 'العقلانية'، والبلاد الأنجلوساكسونية هى أوضح مثال على ذلك. وما يتبقى بعد ذلك ليس حتى بقايا دين ضامر ومشوه، ولكن مجرد حالة 'تديُّن'، أى رجاء عاطفى غامض لا تبرره أية معرفة حقيقية، وتتشاكل مع تلك المرحلة النهائية نظريات مثل 'التجربة الدينية' لوليم جيمس، والتى تذهب إلى أنها تجد فيما 'تحت الوعى' سبيل الإنسان للاتصال بما هو ربانى. وفى هذه المرحلة تنصهر نتائج انحطاط الدين والفلسفة مع 'التجربة الدينية' وتنحدر إلى البراجماتية، والتى يوحى اسمها بإله يقتصر على الفائدة وليس إلهًا لا متناهيا، وعلى المرء أن يشعر نحوه بشعور يضاهى احترامه للكبراء من الناس فحسب. وفى ذات الوقت تنضم جهود التوسل بما تحت الوعى مع الروحانية الحديثة، وكل تلك 'الأديان الزائفة' التى يتسم بها عصرنا. وفى اتجاه آخر انتهت الأخلاقية

البروتستانتية بعد محو قواعدها النظرية بالتدريج، وانحطت إلى ما أسمته 'الأخلاق العلمانية' والتى نجد من بين أنصارها ممثلين لكل طوائف 'البروتستانتية الليبرالية' إضافة إلى المكذبين بكل فكر دينى، وتسترشد الجماعتان بنفس الميول، والخلاف الوحيد هو أن كلتاهما لا تحققان نفس معدل التعمق فى التطور المنطقى لكل ما تعنيه تلك الميول.

والواقع أن الدين هو أحد أشكال التراث، ولذلك لا تملك النظرة اللاتراثية إلا أن تكون معادية للدين، وتبدأ بتغيير طبيعته، وعندما يتم لها ذلك تنتهى إلى إلغائه نهائيا. والبروتستانتية غير منطقية، فبينما هى تفعل كل ما بوسعها 'لأنسنة الدين'، فهى أيضا لا زالت تحافظ على عنصر فوق إنسانى هو الوحى من الناحية النظرية على الأقل. ولا تجرؤ على الاندفاع فى إنكارها إلى نتائج الإنكار المنطقية، ولكنها تفعل ذلك بطرح الوحى فى كل المطارحات المنبثقة عن التفاسير الإنسانية الفردية المختلفة لتختزله تقريبا إلى لا شىء، ونرى الآن من يصرون على التعريف بأنفسهم كمسيحيين ولا يقرون بربانية المسيح، حتى إن المرء لا يستطيع تجنب افتراض أنهم أقرب إلى الكفر الكامل منهم إلى المسيحية الحقة، ذلك رغم أنهم قد لا يدركون ما هم فيه مختلفون. ومثل هذه التناقضات لا يجب أن تثير أية دهشة، فهى فى كل مجال كان مجرد أعراض للفوضى والاضطراب فى عصرنا، مثل الانقسام الذى يتوالى على البروتستانتية وهو مجرد تجلٍّ لذلك الشتات فى الكثرة الذى نوهنا عنه فى كل مناحى الحياة والعلوم الحديثة. ثم إن من الطبيعى أن يتوالد من البروتستانتية ذلك 'التأويل أو النقد' الهدام نظرا لطبيعتها الإنكارية، والتى تحولت فى أيدى من يسمون 'بمؤرخى الدين' إلى سلاح ضد كل الأديان، حتى إن الحركة البروتستانتية تدَّعى أنها لا تعترف بسلطة أعلى من الكتب المقدسة، وقد أسهمت بهذه الطريقة إسهاما وافرا فى تحطيم سلطة هذه الكتب ذاتها، أى إلى تحطيم الحد الأدنى من التراث الذى يحافظون عليه. ولم يكن من الممكن للثورة ضد التراث أن تتوقف بعد انطلاقها فى وسط الطريق.

وقد ينشأ هنا اعتراض يقول ألا يمكن للبروتستانتية أن تكون قد احتفظت بالمذهب التراثى الكامن فى الكتب المقدسة التى اعترفت بسلطتها بعد أن انفصلت عن المؤسسة الكاثوليكية؟ ولكن القول 'بالنقد الحر' يدحض هذه الفرضية تماما، حيث أنه يفتح الطريق أمام كافة الأوهام الفردية، ثم إن الحفاظ على المذهب يفترض وجود تعاليم تراثية منظِّمَة،

تعمل على استمرار التفسير الأصولى للتراث، وقد كانت هذه التعاليم مرتبطة بما عرف بالكاثوليكية فى واقع الأمر. ولا شك أن الحضارات الأخرى قد يكون لها مؤسسات ذات أشكال مختلفة تماما لتحافظ على ما يناظر الوظيفة نفسها، إلا أن الحضارة الغربية بسماتها هى التى تخصنا هنا. فلن يكون من المعقول إذن أن يقال ليس فى الهند مؤسسة تساوى البابوية، والحالة مختلفة تماما هناك، فتراثهم أولا لا يتخذ شكل الدين حسب المفهوم الغربى للكلمة حتى إن وسائل حفظ التراث وتداوله لا يمكن أن تكون واحدة، وثانيا لأن العقلية الهندية فى اختلافها عن الغربية تمتلك فى ذاتها قوة كامنة لم يستطع التراث الغربى أن يتمتع بمثلها، وذلك دون معونة مؤسسة منصوص عليها فى تكوين مظاهر التراث البرّانيَّة. وقد ذكرنا لتوِّنا أن التراث الغربى قد اكتسى بشكل دينى منذ ظهور المسيحية. وسوف يستغرق شرح كل أسباب ذلك طويلا، وهى أسباب قد لا تُفهم بالكامل دون الدخول فى اعتبارات معقدة إلى حد ما، ولكنها حقيقة واقعة لا يسع المرء إلا أن يتفكر فيها[23]، وبمجرد الاعتراف بها لا بد أن يعترف أيضا بالنتائج التى ستتمخض عنها فيما يتصل بالمؤسسات المناسبة لذلك الشكل التراثى.

ثم إن من المؤكد كما أوضحنا سلفا أن كل ما بقى من الروح التراثية فى الغرب قائم فى الكاثوليكية فقط، ولكن هل يعنى هذا صحة الحديث عن إمكانية الحفاظ المتكامل للتراث دون التلوث بالروح الحديثة؟ وليس الحال هكذا لسوء الحظ، أو بالأحرى فإذا كانت رواسب التراث قد ظلت متماسكة وهذا كثير فى ذاته، فإن الشك يحيط بما إذا كان قد أمكن فهم معانيه الحقيقية العميقة فهما صحيحا حتى إذا كان ذلك فى حدود صفوة ضيقة، والتى لو وجدت ما توانت عن الإعلان عن نفسها سواء أكان بعمل أم نفوذ، وكلاهما خفى على الحقيقة. والأرجح أن الحال هى ما يمكن أن يكون حفظ التراث بحالة كامنة، والتى يمكن فيها دائما إعادة اكتشاف معنى التراث لأولئك الذين يستطيعون فهمه، وحتى لو لم يكن أحدٌ منهم واعيا كل الوعى بها فى العصر الحاضر، ثم إن هناك كثير من العلامات أو الرموز التى بقيت من نظريات تراثية غابرة خارج نطاق الدين وقد حُفظَت

23 وعلى هذه الحالة أن تستمر وفقا لقول الكتاب المقدس عنها 'نهاية القرن' بمعنى حقبة أو عصر، أى حتى نهاية الدورة الحالية.

دون فهم لمعناها. وفى مثل هذه الحالات يصبح الاتصال بالروح التراثى الحى لإيقاظ ما استغرق فى النوم أمرا ضروريا كى يُستعاد الفهم المفقود، ولنقل مرة أخرى إن هذا هو ما سيحتاج الغرب فيه لمعونة الشرق إذا كان يطمح إلى استعادة تراثه الذاتى.

وما قلناه توا يشير إلى الإمكانات التى تكمن فى الكاثوليكية من خلال مبدئها الذى تحمله دوما، فإن نفوذ النظرة الحديثة لا يستطيع أن يفعل إلا أن يمنع من فهم بعض الأمور بشكل فعال، وعلى الأقل لزمن ما. ولكن يجب أن نعترف بوجود تأثير أكثر إيجابية للنظرة الحديثة على حال الكاثوليكية اليوم، إذا حكمنا عليها حكم الأغلبية الساحقة من التابعين لها، وإذا كان يمكن للمرء استخدام كلمة 'إيجابى' فى وصف أمر هو فى أساسه وواقعه سلبى. ونحن لا نضع فقط فى اعتبارنا حركات معينة مثل التى اتخذت اسم 'الحداثة' ولم تكن إلا محاولة لتسلل الفكر البروتستانتى إلى الكاثوليكية، وقد تم كبته لحسن الحظ، ولكننا نفكر على الأخص فى حالة عقلية أكثر عمومية وتشتتا ولا يمكن تعريفها بسهولة، وهى لذلك أخطر، وخطرها الأعظم كامن فى أن أولئك الذين تأثروا بها غير واعين بوجودها. فمن الممكن أن يعتقد المرء أنه متدين مخلص وليس متدينا على الإطلاق فى قلبه، ويمكن أن يدعو المرء نفسه 'تراثيا'، دون أن يكون لديه أدنى فكرة عن الروح التراثية الحقة وهذا عرَضٌ آخر من أعراض الاضطراب الفكرى لزماننا. والحالة العقلية التى أشرنا إليها هى التى تتضمن التهوين من شأن الدين، بمعاملته كما لو كان أمرا يصح أن يوضع جانبا، ويُرجع إليه فى أمور محدودة وضيقة بقدر الإمكان، حتى يظل محتجبا تماما، ولا يكون له تأثير حقيقى على بقية الوجود، فهل هناك كثير من الكاثوليك الذين تبدو طرقهم فى التفكير وفى الحياة اليومية مختلفة عن أعتى المكذبين بالدين من معاصريهم؟ ونشير كذلك إلى الجهل الكامل بالمذهب، وحتى اللامبالاة بكل ما يتصل به، فالدين عند كثيرين هو مجرد شعائر تقام وعادات تتَّبع، حتى لا نقول مجرد روتين، وهناك رفض متعمد لفهم أى شىء عنه، وهو رفض يذهب حتى إلى درجة ادعاء أنه يستحيل فهمه، أو ربما ادعاء بأنه ليس فيه ما يمكن أن يُفهم ثم لو أن المرء فهم الدين حقا فهل يمكن أن يجد له موضعا متواضعا فى خضم اهتماماته؟ وهكذا نُسى المذهب أو اختزل إلى لا شىء، وهو ما يقترب من مفهوم البروتستانتية، حيث إنه ناتج من تأثير الميول الحديثة، وهى التى تعارض كل فكر، وما يرثى له حقا هى تلك

المواعظ التى عادة ما تُلقى، فبدلا من الحضّ على رد الفعل حيال هذه الحالة العقلية فإنها تُفضِّل هذه الحالة وتنصح بالتلاؤم معها تماما، وليس هناك إلا حديث عن أخلاقيات، وقليلا ما تُذكر النظرية بحجة أن هذا أمر لن يُفهم، فقد تحول الدين اليوم إلى مجرد 'أخلاقية'، أو ربما كان الأمر أنه لم يعد يهتم بماهيته أحد وهذا أمر آخر. وحتى لو طُرحت العقيدة للنقاش بين حين وآخر فغالبا ما تُختزل نتيجة مناقشتها مع مناهضيها على أرضهم الدنيا، وهو الأمر الذى يؤدى حتما إلى تنازلات لا مبرر لها. ومن أوضح الأمور احتياج الناس بدرجة صغرت أم كبرت للاهتمام 'بالنقد أو التأويل' الحديث، فى حين أنهم لو تبنوا وجهة نظر مختلفة فلن يكون هناك أسهل من بيان حمق هذه التأويلات، وفى ظل ظروف كهذه كيف يمكن لشىء من الروح التراثية الحقة أن يبقى؟

ولا يبدو أن الاستطراد الذى انزلقنا إليه فى طرحنا لتجليات الفردية فى مجال الدين كان بلا مبرر، فقد بيَّن أن الشر فى هذا المجال هو أخطر وأكثر انتشارا مما قد يُفترض فى البداية، ثم إنه ليس غريبا عن المسألة التى نطرحها هنا، والتى تتصل بها الملاحظة الأخيرة مباشرة، فالفردية دومًا هى التى تغذى روح الجدل. ومن الصعوبة بمكان أن يرى معاصرونا أن هناك أمورا لا يمكن أن تناقش بطبيعتها. فالإنسان الحديث يبحث عن جرِّ الحقيقة إلى مستواه بدلا من أن يحاول أن يرتفع هو إلى مستواها، وهذا هو السبب بلا شك فى أن هناك كثيرا من الناس لو تحدثت إليهم عن 'العلوم التراثية' أو حتى عن الميتافيزيقا البحت يتصورون أن الأمر لا يتضح إلا من خلال 'العلوم الدنيوية' و'الفلسفة'. ومن الممكن دائما أن يقوم حوار حول آراء شخصية، حيث إن ذلك لا يذهب فيما وراء المستوى الجدلى، ومن الممكن أن نجد مقولات معقولة بدرجة ما من الطرفين عندما لا يلجآن إلى مبدإ أعلى. والحق أن الحوار يمكن أن يستمر بلا نهاية دون الوصول إلى أى حل، وهو السبب فى أن معظم الفلسفة الحديثة قائمة على المواربة والأسئلة المطروحة بصورة خاطئة. وبدلا من أن يصل الحوار إلى حل لهذه الأسئلة كما هو مفترض فإنه يجعل منها أمورا أكثر غموضا وتشابكا فى سياق محاولة كل طرف تغيير رأى الطرف الآخر، ويصبح أكثر التصاقا برأيه، ويغلق كل طرف على نفسه فيها بشكل أكثر خصوصية من ذى قبل. والدافع الحقيقى ليس الوصول إلى معرفة الحقيقة ولكن إثبات صحة المرء برغم المعارضة، أو على الأقل فإذا

لم يستطع المرء إقناع الآخرين فهو يقنع ذاته بصحة موقفه، وبالرغم من الأسى للفشل فى إقناع الآخرين نتيجة الحاجة إلى 'البروزيليتية' والتبشير الذى هو أحد سمات العقلية الغربية الحديثة. وأحيانا تتبدى الفردية بأسفل وأحط معانيها بشكل فج عندما نتطرق إلى الحكم على أعمال شخص ما بما عرف من حياته الخاصة، كما لو كان هناك أى صلة بين الأمرين. وتتجلى نفس الميول مرتبطة بجنون التفاصيل فى الاهتمام بأصغر خصوصيات حياة 'عظماء الرجال'، نتيجة الوهم بأنه يمكن تفسير ما فعلوه بنوع من التحليل 'النفسى العضوى'، وهذا له مغزى كبير عند من يرغب فى فهم الطبيعة الحقيقية للعقلية المعاصرة.

ولنرجع هنيهة إلى تناول عادة مناقشة مجالات لا مشروعية فى مناقشتها، ولنقل صراحة بأن الميل إلى 'المواقف الدفاعية' هو فى حد ذاته موقف متهافت للغاية، ولأنه مجرد أمر 'دفاعى' بطبيعته بالمعنى الفقهى، ولم تَتَسَمَّ بهذا الاسم المشتق من 'العذر *apology*' عبثا، والمعنى الحقيقى لهذه الدفاعية هو الحاجة إلى مرافعة، والتى اتخذ معناها فى الاستخدام العادى معنى التبرير والسماح، كما اتخذت فى لغة مثل الإنجليزية معنى 'قبول القدر' فى السياق العام، والأهمية المتزايدة التى تعلقت 'بالدفاعية' هى إذن برهان على تقهقر الروح الدينية. ويتضخم التهافت حين ينحط الدفاع كما رأينا إلى جدل، وهو جدل 'دنيوى' فى منهاجه ووجهة نظره، يوضع فيه الدين على مستوى النظريات الافتراضية والحادثة فى العلم والفلسفة والعلم الزائف، والذى يذهب الجدل فيه إلى حد الاعتراف بشىء من المفاهيم التى اخترعت لغرض واحد هو تدمير الدين بكامله، وهذه الدفاعيات ذاتها تمدنا بالبرهان على الجهل الكامل بالطبيعة الحقيقية للمذهب عند الممثلين المنوطين به. والذين يتصرفون بهذا الشكل يقدمون بأنفسهم الدليل على عدم إدراكهم للطابع الحقيقى للمذهب الذين يتصورون أنهم الممثلون الرسميون له، فليس عليهم إلا طرح المذهب بما هو عليه لمن يستطيع أن يفهمه، وفى نفس الوقت ينكرون الخطإ أينما تبدَّى، ويكشفونه بمجرد إلقاء ضوء المعرفة الحقة عليه. ووظيفتهم ليست هى التوصل بالنظرية لحلول وسط باتخاذ جانب من جوانب الصراع، ولكن وظيفتهم هى الحكم الذى من حقهم أن ينطقوا به، ذلك إذا كانوا حقا يحتكمون على المبدإ الذى يلهمهم بلا ريب. وعالم الصراع هو عالم الفعل، أى عالم الفرد والسلطة الزمنية، و'المحرك الذى لا يتحرك' الذى ينتج الحركة ويوجها دون أن يختلط بها، والمعرفة تنير الفعل

دون أن تشارك فى صروفه وما هو روحى يمكن أن يرشد ما هو زمانى دون أن يختلط به، وهكذا يظل كل شىء فى مستواه الصحيح، وفى مرتبة ينتمى إليها فى هيكل الكون، ولكن أين هو المفهوم فى العالم الحديث عن هيكل الكون الحقيقى؟ فليس هناك شىء أو شخص فى مكانه الصحيح، فلم يعد الناس يعترفون بأية سلطة روحية فعَّالة أو أية سلطة زمنية مشروعة، وقد تقدم 'الدنيوى' ليجادل فى المقدس ويلاحى خصائصه وحتى ينكر وجوده، ويحكم سافلها عاليها ويرسم الجهل حدودا للحكمة، ويغشى الحقيقة الخطأ، ويُستبدل الربانى بالإنسانى، وتعلو الأرض عن السماء، ويضع الفرد موازين كل شىء، ويدعى أنه يملى على الكون قوانين من قريحته النسبية غير المعصومة، 'ويل لكم أيها القادة العميان' كما جاء فى الإنجيل، والمرء لا يرى اليوم حقا غير قادة عميان يقودون عميانا، والذين إذا لم يضبطهم ضابط فسوف يقودون الناس حتما إلى الهاوية فيهلكون فيها جميعا.

6. الفوضى الاجتماعية

لا ننوى أن نولى وجهة النظر الاجتماعية فى العمل الحالى أى اهتمام خاص، ولكن اهتمامنا بها غير مباشر، بما هى تطبيق ناءٍ للمبادئ الأساسية، ولن تكون هى المجال الذى تبدأ فيه إعادة صياغة العالم الحديث فى كل الأحوال. والحق أنه إذا كان هناك محاولة لإعادة الصياغة تلك فى هذا المستوى، أى العمل بترتيب عكسى يبدأ من النتائج لا من المبادئ، فلا سبيل إليها على أى أساس كان، وسوف تكون وهما خالصا. ولا يمكن أن تتمخض عن شىء ثابت، ولابد من كتابة هذا العمل من جديد لأننا نكون قد أهملنا التفاهم حول الحقائق الأساسية مثل أى شىء لو أردنا أن ننتهج ذلك المنهج. وهذا هو السبب الذى يجعلنا نرى استحالة اعتبار المسائل السياسية الطارئة، حتى وإن كان ذلك بأوسع معنى للكلمة، وباعتبارها العلامات الظاهرية لعقلية مرحلة زمنية، ولكننا لا نملك أن نتجاهل تماما تجليات الاضطراب الحديث فى المجال الاجتماعى.

وكما أسلفنا الإشارة إلى أنه لم يعد هناك فى أوضاع العالم الغربى الحديث، من يحتل مكانة هو جدير بها من حيث طبيعته، فهذا هو المقصود بعبارة عدم وجود الطبقات فى معناها التراثى، ذلك أن الطبقة لا تعنى إلا الطبيعة الفردية ذاتها، مع مجمل القدرات الخاصة التى تتضمنها، والذى يُسَنَدُ بموجبها إلى كل إنسان إنجاز وظيفة أو أخرى. وحيث إن التكفل بأداء وظيفة ما لا تمليه أية قواعد مشروعة، فالنتيجة الحتمية هى أن كل إنسان يجد نفسه مضطرا لعمل أى نوع من الأعمال التى تتاح له، وكثيرا ما تكون بينها أعمالا ليس مؤهلا لها. وقد تحدد له بذلك الدور الذى يمليه المجتمع، وليس ذلك بالصدفة التى لا

وجود لها فى الحقيقة[24]، ولكن بما يبدو كما لو كان صدفة، أى بشبكة من كل العوامل والظروف الحادثة، وما له أقل تأثير منها ليس إلا العامل الذى يهم بالفعل وهو اختلاف الطبيعة من شخص لآخر، وإنكار هذه الاختلافات هو الذى أدى إلى إنكار الهيكل الاجتماعى، ويحتمل ألا يكون ذلك الإنكار متعمدا فى أول الأمر، وربما بدأ عمليا أكثر منه نظريا، حيث إن اختلاط الطبقات سبق تذويبها، أو بطريقة أخرى أن طبيعة الفرد قد فهمت خطأ، قبل أن يتم تجاهلها تمامًا، وعلى كلٍّ فقد رفع المحدثون لواء هذا الإنكار فى 'مبدإ زائف' باسم 'المساواة'. ومن السهل التدليل على أن تلك المساواة لا وجود لها فى أى مكان، وذلك ببساطة لأنه ليس هناك كائنان متميزان يمكن أن يتماثلا تماما فى الوقت نفسه رغم تميزهما، كما أن من السهل أيضا تخريج النتائج المضحكة التى تتمخض عن تلك الفكرة الخيالية، والتى فرض بعض الناس بفضلها تماثلا كاملا على كل الناس، وبطرق مثل تلقين الجميع تعليما واحدا، كما لو أن الجميع قادرون على فهم نفس الأشياء، وكما لو كانت الوسائل التى يفهمون بها مناسبة للجميع بلا تمييز. ويمكن التساؤل هنا فيما إذا كانت هذه عملية 'تعليم' أم 'فهم'؟ أى هل احتلت الذاكرة محل الذكاء فى التعليم الحديث بالنصوص والكتب؟ ومقصده لا يعدو تراكم الأفكار الأولية التى تنتمى إلى أجناس فكرية مختلفة، ونضحى فيها بالكيف من أجل الكمّ كما يحدث فى كل أرجاء العالم الحديث لأسباب سنتناولها بتفصيل فيما يلى، فهنا مرة أخرى نرى الشتات فى الكثرة. ويمكن أن نتكلم هنا عن كثير من مثالب 'التعليم الإلزامى'، ولكننا لن نفعل، فلابد من الاقتصار على ملاحظة هذا المنتج الخاص 'لنظريات المساواة' كأحد عناصر هذه الفوضى، والتى اجتاحت اليوم أعدادا هائلة يستحيل حصرها.

ومن الطبيعى عندما نلتقى بأفكار مثل 'المساواة' و'التقدم' أو أى من تلك 'العقائد العلمانية' التى يقبلها معظم معاصرونا بشكل أعمى، والتى تكوَّن معظمها أثناء القرن الثامن عشر يستحيل علينا الاعتراف بأنها قد نشأت تلقائيا. فهى 'مقترحات موحية' حقيقية بمعنى الكلمة، ذلك بالرغم من أنها لن يكون لها شأن فى مجتمع ليس مستعدا لقبولها بالفعل،

---

24 و ما يسميه الناس ' صدفة' ليس سوى جهلهم بالأسباب، فإذا كانت عبارة إن شيئا قد حدث بالصدفة تعنى أنه حدث بلا أسباب فسيكون ذلك تناقضا اصطلاحيا.

وهذه الأفكار فى ذاتها لم تخلق النظرة العقلية التى تَسِمُ العصر الحديث، ولكنها ساهمت فى استمرار هذه النظرة وتوصيلها إلى مرحلة لا يمكن أن نتوصل إليها بدون تلك الأفكار. ولو قدر لهذه ’المقترحات الموحية‘ أن تختفى فسوف تصل العقلية الغربية إلى ما يقارب تغير الاتجاه، وهذا هو السبب الذى يجعل الذين لهم مصلحة فى استمرار هذه الفوضى بل فى جعلها أسوأ مما هى عليه يدافعون عن تلك المقترحات الموحى بها بشراسة، وكيف أننا فى زمن طُرحَ كل شىء فيه للمناقشة، إلا أمرا وحيدا هو تلك الأفكار ذاتها. زد على ذلك أن من الصعب حقا قياس إخلاص الداعين لمثل هذه الأفكار العلمانية، أو إلى أى حد قد أصبحوا هم أنفسهم فريسة أكاذيبهم، ويخدعون أنفسهم كما يخدعون الآخرين، والحق أن الذين يلعبون أدوار المغفلين هم عادة أفضل أدوات هذه الأفكار الجماهيرية. وذلك بتفعيل اعتقاد قد يجد الآخرون صعوبة فى تصديقه، والذى يُعدى الغير بضراوة. ولكن فيما وراء ذلك كله وعلى الأقل من الظاهر لابد من ضرورة وجود فعل عمد مقصود، وتحديد الاتجاه لا يمكن أن يكون إلا على أيدى العارفين بالطبيعة الحقيقية لتلك الأفكار التى ينشرونها. ونحن نقول ’أفكار‘ ولكننا لا نقصد ذلك بالضبط، فانطباق هذه الكلمة على هذا الحال بعيد المنال، فمن الواضح أنها ليست ’أفكارا بحتة‘، ولا علاقة لها مطلقا بالمستوى الفكرى، ولكنها أقرب إلى ’الأفكار الزائفة‘ بل ومن الأفضل أن نقول عنها أفكارٌ كاذبة، والتى يقصد بها أساسا إثارة ردود فعل انفعالية، حيث إن ذلك فى الواقع هو الطريق الأسهل والأفعل فى التعامل مع الجماهير. والواقع أن الكلمة المستخدمة هى أهم من الفكرة التى من المفترض أن تمثلها، ومعظم ’الصروح‘ الحديثة لا تعدو كلمات فى الواقع، فقد تجلت ظاهرة ملحوظة عرفت ’بالتمسك الشديد بالصيغ، أو الحرفية‘ استخدمت فيها كلمات رنانة ونجحت فى خلق وهم بالفكر، والنفوذ الذى يمارسه الخطباء على الجماهير يلفت النظر إلى هذا الأمر حقا، ولا يتطلب الأمر كثيرَ تأملٍ لرؤية كيف أن عملية المقترحات الموحى بها تلك شبيهة بما يزاوله المنوّمون المغناطيسيون.

ودون أن نسهب أكثر من ذلك فى هذا المقام فلنعد إلى النتائج التى يؤدى إليها إنكار الهيكل الاجتماعى الحقيقى، ولابد من ملاحظة أن أداء الإنسان فى أحوال العصر الحاضر لا يقف عند مجرد عدم أداء الرجل لوظيفته بكفاءة إلا فى ظروف استثنائية كما لو كانت

صدفة، وقد أصبحت جودة أدائها استثناءً، ولكن يحدث أيضا أن يُستدعى نفس هذا الرجل ليتولى على التوالى وظائف مختلفة تماما كما لو كان قادرا على تغيير قدراته حسبما يرغب. وهذا يبدو متناقضا مع تقاليد عصر 'تخصص' شديد، ولكن هذه هى حال الواقع فى عالم السياسة. والاعتقاد بكفاءة المتخصصين هو حقيقة واقعة شائعة ذلك بالرغم من أنها وهمية تماما وقاصرة على حقول ضيقة للغاية فى معظم المجالات، ويجوز التساؤل عن السبب الذى يمنع تطبيق هذا المبدأ على الساسة، وهم نادرا ما يعتبر عدم الكفاءة عقبة فى سبيلهم. وقليل من التبصر سيبين أنه ليس هناك ما يدهش فى هذا، وأنها فى الواقع نتاج طبيعى للمفهوم الديموقراطى، والذى تأتى فيه السلطة من أسفل، وهى قائمة بالضرورة على الأغلبية، والناتج الفرعى اللازم لهذا المفهوم هو استبعاد كل كفاءة حقيقية، لأن الكفاءة هى دائما على الأقل امتياز نسبى، ولا تنتمى بالضرورة إلا إلى أقلية.

ويمكن أن يفيد فى هذا المقام بعض التفسير للسفسطة التى تأسست عليها الديموقراطية من ناحية، ومن ناحية أخرى بيان الصلة بين هذه الفكرة وبين النظرة العقلية الحديثة برمتها. ولا نكاد نحتاج إلى إضافة من وجهة النظر التى نتخذها أن هذه الملاحظات ستظل بعيدة تماما عن المسائل الحزبية وكافة المنازعات السياسية التى لا ننوى أن نتدخل فيها من قريب أو بعيد. فنحن ننظر إلى هذه الأمور مطلقا بشكل لا تحيز فيه، شأن كل موضوعات الدراسة التى نتناولها، ولا نرغب إلا فى أن نوضح بقدر الإمكان ما يكمن وراءها، وهو أمر ضرورى حقا، والواقع أنه الأمر الضرورى الوحيد إذا كان الغرض هو اختفاء الأوهام التى تعيث بين المحدثين. وهنا أيضا يعود الأمر إلى 'الإيحاء' كما كان فى موضوع مختلف بعض الشىء، ولكنه قريب إلى حد ما مما تناولناه سابقا، وكلما تعرفنا على أمر باعتباره إيحاء واستوعبنا طريقة عمله فلن يستطيع بسط نفوذه على عقول الناس، وفى التعامل مع هذه الأمور فإن النظر الموضوعى كما يقولون اليوم فى اللغة الخاصة المستعارة من الألمان هى أكثر تأثيرا من كل التصريحات الانفعالية والتناقضات الحزبية، والتى لا تثبت شيئا، والتى ليست إلا تعبيرًا عن أفضليات فردية.

ويمكن أن يُختصر الدفع الحاسم ضد الديموقراطية فى عدة كلمات، أن الأعلى لا يمكن أن ينبثق من الأدنى، لأن الأكبر لا يمكن أن يأتى من الأصغر، وهذه مؤكدة

رياضية مطلقة، ولا يدحضها أمر مهما عظُم. ونراعى هنا أن هذا الدفع ذاته ينطبق على مستويات مختلفة من الأمور التى يمكن أن تثار ضد المادية، وليس فى ذلك ما يستغرب حيث إن هذان الميلين أكثر ارتباطا مما قد يبدو من النظرة الأولى. ومن الواضح أن الناس لا يستطيعون تفويض سلطة لا يمتلكونها بأنفسهم، والسلطة الحقيقية لا يمكن أن تأتى إلا من أعلى، وهذا هو السبب فى أنها يمكن أن تكتسب شرعية فقط بتسويغٍ مما فوق النظام الاجتماعى أى السلطة الروحية، وما غير ذلك ليس إلا تزييفا لسلطة لا مسوغ لها من واقع انعدام مبدئها ولن تجر ورائها إلا الفوضى والاضطراب. ويبدأ انعكاس النظام الهيكلى عندما تتوخى السلطة الزمنية الاستقلال عن السلطة الروحية، ثم إنها تتوخى بعد ذلك إخضاعها بالادعاء بأنها تخدم غايات سياسية. وهذا استغلال مبدئى يفتح الطريق لكل الآخرين، وهكذا يتبين مثلا كيف أن الملكية الفرنسية كانت تعمل دون وعى منها من القرن الرابع عشر وما تلاه كى تعد لإطاحة الثورة بها، وقد تسنح لنا فرصة أخرى لطرح هذا الموضوع بكفاءة تستحقه وجهة النظر هذه، ولكننا سنكتفى بالإشارة إليه فى سياق موضوعنا الحالى.

فإذا كانت كلمة 'ديموقراطية' تعنى حكم الشعب بنفسه فهى تعبر عن استحالة مطلقة، ولا يمكن أن توجد كمجرد أمر واقع سواء أكان فى زمننا أم زمان غيرنا. ولابد من الحذر من التوهان وراء الكلمات، فمن التناقض الصارخ أن يكون نفس الأشخاص حكاما ومحكومون فى الوقت ذاته، لأنه لا يمكن للكائن نفسه أن يكون فى حالة فعل وحالة حكم فى آن وفى علاقة واحدة بالاصطلاح الأرسطى. وعلاقة الحاكم والمحكوم تستلزم شرطين، فلن يكون هناك محكومين طالما لم يكن هناك حكاما، وحتى لو كانت تلك الفئة الحاكمة غير مشروعة وجدارتها لا تتعدى حدود ادعائها، إلا إن المقدرة العظمى التى يتمتع بها من يحكمون العالم الحديث هى إقناع الناس بأنهم حقا يحكمون أنفسهم، ويميل الناس إلى تصديق هذا الادعاء لأنه يرضى غرورهم، كما أنهم على كل حال عاجزين عن التأمل فى استحالته. وكان عليهم أن يخترعوا وهما سموه 'الرأى العام'، فالمفترض أن رأى الأغلبية هو الذى يضع القانون، وقد تجاهلوا حقيقة أن هذا الرأى من السهل قيادَه وتعديله، ويمكن دائما بالمقترحات الموحية المناسبة، إثارة تيارات تعيث فى اتجاه أو آخر. ولا نتذكر من كان

أول من تكلم عن ʼصناعة الرأىʻ، ولكن هذا التعبير بليغ للغاية، ويجب أن نضيف إلى ذلك أن الذين يمسكون بظاهر السلطة لا يحتكمون غالبا على الوسائل اللازمة لتطبيقها. وهذه الملاحظة الأخيرة من شأنها توضيح أن عدم كفاءة أكثر الساسة شهرة هى نقيصة لها أهمية نسبية، ولكن حيث إننا لن نعكف هنا على كشف أفعال ما يمكن أن يسمى ʼآلة الحكومةʻ فلن نذكر إلا أن عدم الكفاءة هذا يخدم فى الحفاظ على الوهم الذى ذكرناه لتوِّنا، وهو حقا شرط ضرورى إذا كان لابد لهؤلاء الساسة أن يبدوا كما لو كانوا ينتسبون إلى الأغلبية، حيث إنها تصبغهم بصبغتها، وفى حدود أن الأغلبية عليها أن تعطى رأيها فى أى موضوع كان، ودائما ما تتكون من غير الأكفاء، والذين يربو عددهم بمراحل عن الناس الذين يستطيعون أن يدلوا برأى قائم على معرفة كاملة.

ويؤدى بنا هذا إلى الإسهاب بعض الشىء فى خطإ فكرة أن الأغلبية هى التى يجب أن تصنع القانون، فرغم أن هذه الفكرة ستظل نظرية فقط لأن تناظرها مع مستوى الحقيقة الفعالة أمر مستحيل يبقى من الضرورى أن نفسر كيف أنها تجذرت فى العالم الحديث، وكيف أنها تناظر بعض سماته، وترضى بعض السمات الأخرى على الأقل ظاهريا. فأوضح تيار فيها هو ما تقدم عن رأى الأغلبية وأنه يستحيل أن يكون إلا تعبيرا عن عدم الكفاءة سواء بسبب نقص الذكاء أو الجهل ببساطة، ونستعين هنا ببعض الملاحظات فى إطار ʼعلم النفس الجماهيرىʻ، وخاصة الحقيقة المعروفة عن أن محصلة ردود الفعل العقلية التى تثور بين الأفراد الذين يشكلون هذه الجماهير تتبلور فى شكل مرض نفسى عام وليس مستواها حتى المستوى المتوسط بينها، ولكنه مستوى أحط عناصر هؤلاء الأفراد. ونلحظ أيضا فى مجال مختلف بعض الشىء أن فلاسفة محدثين قد حاولوا طرح النظرية الديموقراطية التى يتعين فيها أن يسود رأى الأغلبية، وفى عالم الفكر ذاته وقد حاولوا بشكل رئيس أن يدَّعوا أنهم قد توصلوا إلى ʼمعايير للحقيقةʻ فيما أسموه ʼالإجماع الشاملʻ. فلو افترضنا أن هناك مسألة واحدة يجمع عليها كافة الناس أو حتى إن مثل هذا الإجماع يمكن أن يوجد أصلا وهو أقل احتمالا من إجماع كافة الناس على مسألة واحدة أيا كانت، فإن هذا الإجماع لا يبرهن على شىء فى حد ذاته فكثير من الناس سيظلون بلا رأى من أى نوع، حيث إنهم لم يفكروا أصلا فى المسألة برمتها، فيصبح من المستحيل إثبات وجود

الإجماع فى الواقع، وما يدفعون به لإثبات صحة رأيهم لا يعدو اتفاق الأغلبية، وهى أغلبية جماعة محدودة بالضرورة فى المكان والزمان. ويتبدى إفلاس نظريتهم فى هذا المجال بشكل أوضح لسهولة دحض وإزاحة العوامل الانفعالية التى تعيث فى مجال السياسة. وذلك النفوذ الذى تكتسبه هذه العوامل هو العقبة الرئيسة التى تعترض فهم أمور معينة، وحتى عند أولئك الذين يتمتعون بقدرة فكرية تمكنهم من فهمها دون صعوبة، فالاندفاعات الانفعالية تعوق التأمل، واستغلال هذا الاختلاف بينهما هو أحد الألاعيب غير الشريفة التى تُستخدم فى السياسة.

ولكن دعنا نتعمق بدرجة أكبر فى المسألة عن ماهية ذلك القانون القائم على العدد الأكبر والذى تقوم بتفعيله الحكومات الحديثة، والذى تدعى هذه الحكومات أنه مبررها الوحيد للوجود؟ وليس ذلك إلا قانون المادة والقوة الغاشمة، وهو نفس القانون الذى يجعل جمهورا منفعلا يجتاح بثقله كل ما يعترض طريقه. وهنا نجد مفصل الصلة القائمة بين المفهوم الديموقراطى والمادية، كما أنه أيضا السبب فى تجذر هذا المفهوم وثيق الارتباط بالعقلية الحالية فى العالم الحديث. ويدل على أن النظام الطبيعى للأمور مقلوب تماما، يُرفع فيه لواء امتياز الكثرة، وهو امتياز لا يوجد إلا فى عالم المادة. أما فى عالم الروح وأوضح حتى من ذلك فى هيكل الكون فالوحدة هى قمة الهيكل، حيث إن الوحدة هى التى ينبثق عنها كافة أنواع التكثّر[25]. وبمجرد إنكار أو فقدان المبدإ لا يبقى ببساطة إلا الكثرة فحسب، وهى مثل المادة تماما. وقد كانت إشارتنا إلى الثقل لها مغزى أكبر من مجرد المقارنة، حيث إن الثقل يمثل الميل إلى التثاقل إلى أسفل فى مجال القوى الطبيعية بالمعنى المعتاد تماما للكلمة والذى هو تحديد متزايد لقدرات الكائن، ويميل إلى التكاثر فى نفس الوقت والذى يمثلها هنا درجة أعلى من تركيز الكثافة[26]، وهذا الميل قد عمل على تشكيل تطورات

---

25 وفى هذه الحالة كما فى غيرها فإن تشبيه أحد مستويات عالم الحقيقة بعالم آخر ينطبق بمعنى معكوس.

26 وهذا الميل هو الذى يسميه الهندوس *تاماس* *tamas* يرمز إلى الجهل والظلام، وما ذكرناه لتونا عن انطباق المعنى بشكل معكوس فى كل التشبيهات سوف يبين أن التركيز المقصود هو عكس اتجاه التركيز فى المستوى الروحى أو الفكرى، حتى أنه فى الحقيقة يكافئ الانقسام والتشتت فى الكثرة ومهما كانت غرابة ما يبدو عليه هذا فى أول الأمر. وينطبق نفس الأمر على التماثل الناشئ عن مفهوم المساواة من أسفل المستويات، والذى هو عكس التوحد المبدئى المتعالى.

النشاط الإنسانى منذ بداية العصر الحديث. ويجب علينا أن نراعى أن المادة بقدرتها على التقسيم والتحديد هى ما تسميه الفلسفة المدرسية 'مبدأ الفردية' وهذا يقيم الصلة بين المسائل التى نطرحها الآن وفى مناسبات سابقة أيضا مع الفردية، وهى الميل الذى تمثله فى التراث اليهودى المسيحى 'السقطة' أى سقطة الذين هجروا الوحدة الأصيلة[27]. وإذا نحن تبصرنا فى الكثرة بعيدا عن الادعاءات التى لا تملك التحول إلى وحدة، فتتخذ شكلا فى عالم المجتمع يُفهم على أساس أن المجتمع هو المجموع الحسابى لأفراده، والواقع أن المجتمع ليس أكثر من ذلك بمجرد انفصاله عن الارتباط بأى مبدإ أسمى من هؤلاء الأفراد. وقانون مجتمع كهذا لا يزيد حرفيا عن قانون العدد الأكبر، وقد قامت على ذلك القانون فكرة الديموقراطية.

ولابد من التوقف هنا للتحسب لسوء فهم محتمل، فنحن لم نتبصر إلا فى جانب تجلى ظاهرة الفردية فى المستوى الفكرى فى سياق حديثنا عن الفردية الحديثة، ويحتمل أن يُفترض أن الحال سيكون بخلاف ذلك فى حالة المستوى الاجتماعى. والحق أننا لو أخذنا كلمة 'الفردية' فى أضيق معانيها فقد يغرى ذلك بالظن بأن حقائق مثل الدور الاجتياحى المتزايد للدولة، والتعقيد المتزايد للمؤسسة الاجتماعية تتجه عمليا إلى ميل مناقض للفردية. والحق أنها ليست كذلك لأن الجماعية ما هى إلا مجموع عدد الأفراد الذين يشكلونها، ولا يمكن أن تكون مخالفة لهم بأكثر مما تخالفهم الدولة فى مفهومها الحديث، وينظر إليها ببساطة كتمثيل للجماهير، يخلو من انعكاس أية مبادئ أعلى، وسوف نتذكر أن الفردية كما عرَّفناها تتضمن إنكار أى مبدإ فوق فردى. ولذلك لو قدر لأى صراع أن ينشأ فى الدائرة الاجتماعية بين الميول المختلفة التى يتجذر كل منها فى المنظور الحديث فليست تلك صراعات ما بين الفردية وبين شىء آخر، ولكنها ببساطة صراع بين أشكال مختلفة تستطيع الفردية أن تتقمصها، ومن السهل أن نرى كيف أن تلك الصراعات قد أصبحت أكثر تواترا وخطورة عن ذى قبل نتيجة غياب المبدإ الذى يستطيع توحيد الكثرة، ولأن الفردية بالضرورة تعنى الانقسام، وهذا الانقسام والفوضى الناشئة عنه هو بالضرورة الناتج القاتل

---

27 ولهذا خص دانتى الشيطان بموقع فى مركز الأرض أى الموقع الذى تتجه إليه كافة التثاقلات من كل الأنحاء، ومن وجهة النظر هذه فهو عكس مركز الجذب الروحى أو 'الربانى'، الذى ترمز له كثير من النظريات التراثية بالشمس.

لحضارة مادية، فالمادة ذاتها هى مصدر الانقسام والتشتت فى الكثرة.

وأخيرا يبقى علينا التأكيد على نتيجة وحيدة مباشرة لفكرة الديموقراطية، وهى فكرة إنكار الصفوة بمفهومها المشروع الوحيد، فليست 'الديموقراطية' مناهضة 'للأرستقراطية' بلا سبب، فهذه الكلمة الأخيرة لغة لا تعنى إلا سلطة الصفوة. والصفوة من واقع تعريفها هى القلة، وقوتهم أو بالأحرى سلطتهم، قائمة على تميزهم الفكرى، ولا علاقة لها بالقوة العددية التى تأسست عليها الديموقراطية، والتى هى قوة تميل إلى التضحية بالأقلية لصالح الأغلبية، وبالتالى التضحية بالجودة لصالح الكمية، والتضحية بالصفوة لصالح الجماهير. ووظيفة الإرشاد التى تمارسها الصفوة ودورها يحتم عليها ذلك إذا هى قامت حقا وليس هناك مقابسة بينها وبين الديموقراطية، والتى هى وثيقة الصلة بمفهوم المساواة وبالتالى بإنكار كافة التراتبات الهيكلية، وتفترض أسس الديموقراطية فكرة أنه ليس هناك من فرد يتميز على آخر، وذلك لأنهما بالضرورة متساويان عدديا، وبالرغم من حقيقة أنهما لا يمكن أن يتساويا فى أى شىء آخر. والصفوة الحقيقية كما ذكرنا لا يمكن إلا أن تكون صفوة فكرية، ولهذا تنشأ الديموقراطية فقط حيث يختفى المستوى الفكرى البحت من المجتمع برمته، كما هى حال العالم الحديث. وحيث إن المساواة أمر مستحيل وأن الاختلافات بين شخص وآخر لا يمكن عمليا أن تكبت بأكملها بالرغم من كل الجهود التى تبذل للتسوية بينهما، فقد عكف الناس نتيجة منطقٍ ملتوٍ على اختراع صفوات زائفة ومن أنواع عدة، وتدعى جميعا أنها أتت لتحل محل الصفوة الحقيقية، وهذه الصفوات الزائفة قائمة على تشكيلة من أوجه التميز النسبية والعارضة، وكلها دائما من المستوى المادى. وهذا واضح من حقيقة أن التميز الاجتماعى الذى تزداد أهميته فى سياق الأمور الحاضر هى تلك التى تقوم على الثروة، أى على تميز ظاهرى بحت من طبقة كمية صرف، وهى التميز الوحيد فى الواقع الذى يتسق مع الديموقراطية لقيامه على وجهة النظر ذاتها التى تقوم عليها. ونضيف إلى ذلك أن الذين يقفون فى مواجهة هذه الحال ويعترضون عليه عاجزون عن معالجة هذه الفوضى بكفاءة، ويمكن حتى أن يعملوا على تفاقم حدتها بالتقدم فى نفس الاتجاه لأنهم لا يحتكمون على أى مبادئ أعلى منها. والصراع إذن هو صراع بين نوعيات مختلفة من الديموقراطية، وبإبراز متعمد لمسألة الميل إلى المساواة كما أنها صراع بين نوعيات مختلفة من الفردية وهو نفس

الشيء فى كل حال.

وتبدو هذه الخواطر القليلة كافية لتصوير فكرة عن الأحوال الاجتماعية للعالم المعاصر، وتبين فى الوقت نفسه أنه لا يمكن أن توجد إلا طريق وحيد للخروج من هذه الفوضى سواء فى المستوى الاجتماعى أو فى أى مستوى آخر، ألا وهو استعادة الفكر البحت، والذى سيؤدى إلى تكوين صفوة مرة أخرى. ويجب اعتبار أن هذه الصفوة لا توجد حاليا فى الغرب، حيث إن هذا الاسم لا يجوز أن يطلق على العناصر القليلة المتفرقة التى لا تمثل بما هى عليه إلا استطاعات محتملة غير ناضجة. وهذه العناصر حقا تميل إلى إظهار ما يربو قليلا على ميول أو طموح، وهى أمور تؤدى بهم إلى رد فعل مضاد للنظرة الحديثة دون أن يستطيعوا التأثير عليها بأى شكل كان. وما ينقصهم هو المعرفة الحقيقية ومعطيات التراث، وهى أمور لا يمكن ارتجالها عفو الخاطر، وما سيصل إليه الذكاء المنفرد فى ظروف معاكسة لن يكون إلا بشكل ناقص وبدرجة متهافتة. وبالتالى ليس هناك إلا جهود متفرقة، وغالبا ما تطيش سهامها لانعدام الإرشاد والتوجيه النظرى، ويمكن القول بأن العالم الحديث يحمى ذاته بهذا الشتات، والذى لن يفلح مناهضيه فى الإفلات منه. وسوف تبقى الحال على ذلك طالما التزم المناهضون بالأرضية 'الدنيوية' التى تخصها العقلية الحديثة بمكانة مرموقة بما أن ذلك هو مكانها الفعلى، وعلى أى حال فطالما ظلوا على هذه الأرضية كان ذلك يعنى أن هذه العقلية لا زالت مسيطرة عليهم رغم كل شيء. ولهذا كان من الصعب أن يفهم كثير من الناس رغم نواياهم الحسنة أن البداية يمكن أن تتحقق فقط من المبادئ، ويصرون على بعثرة جهودهم فى دائرة نسبية سواء أكانت اجتماعية أم غير ذلك، والتى لن يتم فيها قطُّ إنجاز أى أمر حقيقى أو دائم فى مثل هذه الظروف. وليس على الصفوة الحقيقية من ناحية أخرى أن تتدخل مباشرة فى هذه الدوائر، أو أن تتقمص دورا فى الفعل الظاهر، فسوف توجه كل شيء بنفوذ لا يعى العوام ماهيته، والذى كلما زاد خفاؤه زادت قوته. ويكفى الاعتبار فيما قيل عن قوة الاقتراح الموحى، والتى لا تتطلب وجود أى مستوى فكرى كان، ويمكننا من باب أولى تصور قوة هذا التأثير كتَسَلُّطٍ بشكل أكثر خفاءً بسبب طبيعتها فى حين تتخذ أصولها من المجال الفكرى البحت بدلا من إضعاف أثرها فى الانقسام الكامن فى التعدد فسوف يكون فعلها على

العكس من ذلك أكثر حدة بالتركيز على الوحدة الأساسية، إذ سوف تكون بذلك متوحدة مع الحقيقة ذاتها.

7. حضارة مادية

يتضح من كل ما قيل سابقا ما يكفى كى نجد مبررا للشرقيين فى لوم الحضارة الغربية الحديثة، على كونها مادية فحسب وقد تطورت فى خطوط مادية بحتة، ويُواجَهُ المرء من أية وجهة نظر كانت بالنتائج المباشرة لهذه المادية. إلا أن هناك ما يمكن أن نضيفه إلى ما تقدم، فأولا لابد من شرح المعانى المختلفة التى يمكن أن تتلبسها كلمة مثل 'المادية'، فإذا نحن استخدمناها لتوصيف العالم المعاصر فإن الذين يدَّعون الإغراق فى الحداثة دون أن يعتبروا أنفسهم ماديين بأى طريقة كانت سيحتجون بالتأكيد ويعتقدون أن هذا مجرد إفك، ولابد إذن من البدء بتفسير ما يمكن أن نتجنب معه مقدما أى غموض حول هذا الأمر.

فمن اللافت للنظر أن كلمة 'المادية' ذاتها لم تظهر فى الوجود قبل القرن الثامن عشر، وقد اخترعها الفيلسوف بيركلى، والذى استخدمها فى وصف أية نظرية تقبل بوجود المادة وجودا حقيقيا، ولا ضرورة لذكر أن هذا المعنى لا شأن له بما نقصده هنا من هذه الكلمة حيث إننا لا نجادل فى وجود المادة. وبعد فترة وجيزة اتخذ الاصطلاح معنى أكثر ضيقا وهو المعنى الذى استمر حتى الآن، وأصبحت تعنى مفهوما ينبنى عليه أنه لا يوجد وجود واقعى غير المادة ومشتقاتها. ويجب مراعاة أن هذا المفهوم جديد تماما، وأنه بالضرورة ناتج عن وجهة النظر الحديثة ويناظر على الأقل بعض الميول التى تكمن فيها[28]. ولكننا ننوى حاليا أن نتحدث عن المادية بمفهوم آخر وبمعنى أرحب، إلا أنه أدق من ذلك المعنى المذكور، وتتمثل فيه المادية كحالة عقلية كاملة، ولا يعدو المفهوم الذى ذكرناه فى إطارها إلا تجلٍّ واحدٍ من تجلياتها الشتى، وهو فى ذاته مستقل عن أية نظرية فلسفية كانت. والحالة العقلية هذه تتضمن العمل بوعى قل أو كثر على أولوية الأمور المادية وما تمخض عنها من أعمال، وسواء أكانت تلك الأعمال تدعى أنها نظرية أم عملية صرف، ولا يجوز الجدل

28 كانت هناك دوما فى القرن الثامن عشر نظريات 'آلية' *mechanistes* بدءًا من الذرية اليونانية ووصولا إلى الطبيعية الديكارتية، ولكن الآلية لا ينبغى لها أن تختلط بالمادية، وذلك بالرغم من بعض العلاقات المتشابهة بينهما، والتى كان من شأنها أن تعقد بينهما نوعا من التماسك الفعلى منذ ظهور 'المادية' بالمعنى الدقيق للكلمة.

جديًّا حول ما إذا لم تكن هذه هى العقلية التى يتمتع بها الأغلبية الساحقة من معاصرينا.

فكافة ’العلوم الدنيوية‘ التى تطورت إبَّان القرون الأخيرة ما هى إلا دراسة للعالم المحسوس فقط، وهى مغلقة تماما فى حدود هذا العالم، وتعمل بمناهج لا يمكن تطبيقها إلا على هذا المجال وحده وهذه المناهج هى التى يروج لها باعتبارها ’علمية‘، وهذا ما يعنى رفض أى علم قائم على دراسة ما هو غير مادى. ويرفض كثيرٌ من الذين يفكرون فى هذا الإطار بما فيهم من تَخَصَّصَ فى تلك العلوم أن يوصفوا بالمادية، أو أن يقبلوا الانتماء إلى المذهب الذى يحمل ذلك الاسم. وهناك حتى من لديهم إيمان دينى ولا يمس إخلاصهم شائبة، ولكن ميولهم العلموية لا تختلف عن تلك التى يتبناها أعتى الماديين شأنا. وقد تردد تساؤل من وجهة النظر الدينية عما إذا كان العلم الحديث إلحاديا أم ماديا؟ ولكن السؤال وضع بطريقة سيئة، فمن المؤكد أن ذلك العلم لا يدعو تحديدًا إلى الإلحادية ولا المادية، ولكنه يتجاهل عدة أمور بمجرد تحيزاته، دون أن ينكرها صراحة كما قد يتبادر إلى ذهن فيلسوف أو آخر، ففى العلم الحديث إذن لا يستطيع المرء إلا أن يتحدث عن المادية واقعيا، أو ما يمكن أن يسمَّى بالمادية العملية، ولكن الشر قد صار أوغل خطورة حيث ازداد تعمقا وانتشارا. والسلوك الفلسفى لا يمكن أن يكون إلا أمرا سطحيا للغاية، حتى فيما يخص الفلاسفة ’المحترفين‘، ثم إن هناك من لا زالوا يتراجعون أمام الإنكار الكامل، ولكن لا اعتراض لهم على الإنكار إلى حد اللامبالاة، وهذا هو موضع الخشية، لأن إنكار أمر ما يستلزم على الأقل التفكير فيه إلى حد ما مهما كان ذلك الحد صغيرا، بينما تجعل اللامبالاة من الممكن ألا يُفَكَّر فيه على الإطلاق، وحين يدعى علم مادى صرفٌ أنه العلم الوحيد الممكن ولا علم غيره ثم حين يعتاد الناس على ذلك الادعاء بلا تساؤل فلا يمكن أن توجد معرفة ذات قيمة من أى نوع خارج ذلك العلم، ثم حين ينهال عليهم كل ما تلقوه من تعليم ليغرس فى نفوسهم خرافة ذلك العلم أو تلك ’ النزعة العلموية‘ كما يمكن أن تسمى حقا، فكيف يمكن أن يكون هؤلاء الناس غير ماديين، أو بالأحرى هل هم بمنجاة من تسخير كل اهتمامهم للمادة؟

ويبدو أنه لا يوجد فى تصور الإنسان الحديث إلا ما يمكن أن يُرى ويُلمَس ولو أنهم اعترفوا على الأقل نظريا بوجود شىء أكبر من هذا فهم يسارعون إلى إعلان أنه لا يمكن

أن يُعرَف وليس مجرد أنه غير معروف، وهو أمر يغنيهم عن التفكير فيه. والحق أن هناك بعض من يحاولون خلق تصور لأنفسهم عن 'عالم آخر'، ويعتمدون فى تصوراتهم على خيالهم فحسب، فهم يمثلونه بالتشاكل مع عالمهم الأرضى، ويضفون عليه كل خصائص الوجود من مكان وزمان، ويضفون عليه حتى درجة من 'الجسدانية'، وقد عرضنا لذلك فى موضع آخر فى الحديث عن ' المفاهيم الروحية *conceptions spirites*، والتى تحتوى على كثير من أمثال تلك التمثلات الخرقاء. ولكن إذا كانت تلك المفاهيم تمثل حالة متطرفة وقد بولِغ فى حجم هذه الصفة فيه إلى حد الكاريكاتير فمن الخطإ افتراض أن هذا الأمر قاصر على الروحانية والطوائف التى تنتمى إليها. فالواقع أن الخيال قد تدخل فى عوالم لا نفع له فيها ويجب أن تظل مغلقة أمامه بشكل طبيعى، وهو ما يبين بوضوح عجز الغربيين المحدثين الارتفاع عن العالم العقلانى. وهناك كثير ممن لا يرون فارقا بين 'الفهم' و 'التخيل'، إلا أن بعض الفلاسفة مثل كانط قد ذهبوا إلى حد إطلاق صفة 'يستحيل فهمه' أو 'يمتنع التفكير فيه' على كل ما لا يمكن التعبير عنه. وبنفس الطريقة تجد أن 'الروحانية' و'المثالية' ما هى إلا مادية منقولة *materialisme transposé*، وهذا صحيح ليس فقط فى حالة 'الروحانية الحديثة *neo spiritualisme*' ولكن فى الفلسفة الروحية ذاتها، وحتى لو كانت تلك الأخيرة تُنصِّب نفسها فى مقابل المادية بالمعنى الفلسفى للكلمة فلا يمكن أن يُفهم أحدهما بعيدا عن الآخر، حيث إنهما مجرد نصفين للازدواجية الديكارتية، والتى تُحَوِّل انفصالهما الأصلى إلى نوع من التضاد، ومنذ ذلك الحين تذبذبت الفلسفة بكاملها بين هذين الاصطلاحين دون أن تنجح فى اجتيازهما. فالروحانية بالرغم من اسمها لا علاقة لها 'بالروحية'، والحرب التى تشنها على المادية ليس فيها نفع لكل من تبنى وجهة نظر أعلى، فهم يرون أن هذين النقيضين ليسا إلا متساويين بسيطين، وأن ادعاء التناقض بينهما فى كثير من النقاط ليس إلا نزاعاً لفظيًّا على سبيل التدليس.

ويعجز المحدثون عموما عن فهم أى علم إلا بما يُقاس ويُعدُّ ويُوزن، أى أشياء مادية، حيث إن هذه فقط هى التى يمكن أن تُطبَّقَ عليها وجهة النظر الكمية، ودعوى اختزال الكيف إلى الكمِّ هو ميل نمطى للعلم الحديث. وهذا الميل قد بلغ الحد الذى يدَّعى فيه أنه ليس هناك من علم بالمعنى الحقيقى إلا ما يمكن أن يُقاس، وليس هناك من قوانين علمية

إلا ما يعبر عن علاقات كمية. وقد نشأ هذا الميل من آلية ديكارت، ومنذ ذلك الحين أصبح أكثر استشراءً. وبغض النظر عن رفض العلم الحديث للطبيعيات الديكارتية لعدم ارتباطها بأية نظرية طبيعية بل هى تتعلق بمفهومٍ عام للمعرفة العلمية. وتظهر اليوم محاولات لتطبيق القياسات على مجال علم النفس، والذى يرفض بطبيعته هذه الطرق. وقد وصلنا بذلك إلى المرحلة التى يستحيل فيها فهم أن إمكانية القياس مشتقة من صفة كيفية كامنة فى الشىء، أى من حيث قدرته على الانقسام بلا حدود، أو أن نعتقد بدلا عن ذلك أن تلك الصفة الكيفية كائنة فى كل شىء كان فى الوجود، وهو ما يساوى مادية كل شىء. وكما ذكرنا سلفا أن المادة هى مبدأ الانقسام والكثرة، والسيادة التى وصلت إليها وجهة النظر الكمية هى حقا المادية كما عرَّفناها سابقا، وهى سيادة امتدت حتى إلى المجال الاجتماعى، وهذه المادية ليست مرتبطة بالفلسفة المادية التى سبقها تطور الميول الكامنة فى النظرة الحديثة. ولن نسهب فى وصف الخطإ الشائع فى اختزال الكيف إلى كَمٍّ، أو عجز كل المحاولات التى تنحو إلى تفسيرات آلية بطبيعتها، فليس ذلك هدفنا حاليا، وسوف نلاحظ فقط فى هذا الصدد أن علما أيا كان موقعه فى المرتبة الحسية ليس له إلا علاقة واهية بالحقيقة التى لابد سيهرب معظمها من انتباهه.

ويقودنا الكلام عن 'الواقع' إلى ذكر واقعة أخرى قد يسهل تجاهلها، ولكنها ذات مغزى كعلامة على حالة العقل الذى نتحدث عنه، وهى أن الناس عموما عندما يفكرون فى كلمة 'الواقع' يقصدون الواقع فى مجال المحسوسات فقط. وكما تعبر اللغة عن عقليات أمة أو حقبة فلابد أن يستنتج المرء أن ما لا يُستَوعَب بالحس يصبح 'غير حقيقى' عند هؤلاء الناس، أو قد يسمونه وهمًا، أو قد ينكرون وجوده، وقد لا يكونون واعين به بوضوح إلا أنهم يتمسكون بتلك القناعة السلبية بشدة، وحتى لو هم أنكروها لجاز للمرء أن يعتقد أن إنكارهم مجرد تعبير عن أمر أكثر ظاهرية، وقد لا يكون فى الواقع إلا جريا وراء ألفاظ فارغة. وإذا عنَّ لأحد أن يعتقد أننا نبالغ فما عليه إلا أن يتفكر فيما يدعوه كثير من الغربيين بالمعتقدات الدينية، والتى لا تزيد عن أفكار شحيحة محفوظة عن ظهر قلب بطريقة آلية كطرق التعليم الأولى، والتى لم يتسن لهم هضمها أبدا ولم يتفكروا فيها جديا على الإطلاق، ولكنهم يختزنونها فى ذاكرتهم لإطلاقها فى المناسبات فى سياق مواضعات

رسمية، وهو كل ما يفهمونه عن الدين. ولقد سبق أن ذكرنا شيئا عن عملية ’التهوين‘ من شأن الدين، والتى تمثُلُ فيها ظاهرة الجرى وراء الألفاظ الفارغة المذكورة أحد المراحل الأخيرة، وهذا هو ما يفسر كيف أن ’المصدِّقين بالدين‘ ليسوا بأقل من ’المكذبين بالدين‘ فى اندياحهم تحت وطأة ماديتهم العملية. وسوف نتناول هذه المسألة فيما بعد، ولكن يجب أولا أن نستكمل وصفنا للسمات المادية فى العلم الحديث، حيث إن هذا الموضوع يحتاج إلى معالجة من عدة نواح.

وعلينا أن نبدأ بالتذكير بنقطة سبق ذكرها، هى أن العلم الحديث لا يملك صفة البحث غير المتحيز عن المعرفة كما يدَّعى، وليس له قيمة فكرية حتى لمن يعتقدون فى قيمته، وليس إلا قناعًا يخفى تحته اعتبارات عملية، ولكن هذا القناع يجعل من الممكن تغذية الوهم بأفكار زائفة. وقد كان ديكارت ذاته فى سياق طبيعياته يهتم خصوصا بتخريج أنظمة منها للميكانيكا والطب والأخلاق، ولكن تغيرا أكثر جسامة قد اتخذ مساره بنشر أعمال التجريبية الأنجلوساكسونية والترويج لنفوذها. وما هنالك غير النتائج العملية التى يتوصل إليها العلم الحديث كى تحافظ على سمعته فى عيون العامة، وهنا مرة أخرى نجد أشياء تُرى وتُلمَس. وذكرنا أيضا أن البراجماتية تمثل منتجا للفلسفة الحديثة برمتها وهى المرحلة الأخيرة فى انهيارها، ولكن بعيدا عن الفلسفة فقد ظهرت واستشرت براجماتية غير منظومة فى فكر ما، وقد كانت بالنسبة إلى البراجماتية الفلسفية كما كانت المادية العملية بالنسبة إلى المادية الفلسفية، وهى حقا ما يسميه الناس عموما ’بالمعقولية العامة‘، والتى تشتمل على حكمة عدم الخوض فى أية أمور وراء العالم الأرضى، وتجاهل كل ما ليس له نفع مباشر. فيعتبر من قبيل ’المعقولية العامة‘ أن نرى عالم الحواس فحسب كحقيقة، وهذا العالم لا يعترف بأية معرفة بخلاف ما يتأتى عن طريق الحواس، ثم إنها تدَّعى أن قيمة هذا العلم المحدود هى بقدر ما يستطيع أن يُرضى من الاحتياجات العملية أو الانفعالية، ولابد من التصريح بأن الانفعالية تكمن قريبا جدا من المادة حتى بالمجازفة بزلزلة الأخلاقية المعاصرة. ولا يبقى فى كل هذا مجال للذكاء، أو على الأكثر الذكاء الذى يمكن أن يوافق على تحقيق غرض عملى، ويصير مجرد أداة خاضعة لمتطلبات أحط وأسفل ما فى الإنسان الفرد، ويصبح كما قال بيرجسون ’أداة لصنع الأدوات‘، وهو تجاهل تام للحقيقة التى تمخضت عنها البراجماتية فى

كل أشكالها.

ولم تعد الصناعة فى ظل تلك الأحوال مجرد تطبيق للعلم، وهى بما هى تطبيق يجب أن يكون العلم مستقلا عنها تماما، ولكنها أصبحت غاية ومبرر وجود هذا العلم إلى درجة تنقلب فيها الموازين الطبيعية بين الأشياء. وما سعى إليه العالم الحديث بكل قوته وحتى لو ادعى بطريقته أنه يتَّبع العلم، لم يكن شيئا إلا تعظيم الصناعة والميكنة، ويأملون بهذه الطريقة أن يتحكموا فى المادة، ويطوعونها لاستخداماتهم، ولم ينجح الناس فى هذا العصر كما نوهنا فى أول هذا الكتاب إلا فى أن يكونوا عبيدا لهذه الصناعة. فلم يكتفوا بتحديد طموحهم الفكرى لو كان لهذه الكلمة أن تستخدم فى مجريات الأمور الحالية بل وعكفوا على اختراع وبناء الآلات، وانتهى بهم الأمر إلى أن يصبحوا آلات هم أنفسهم. والحق أن هذا لا ينطبق فقط على الدارسين لهذا العلم، ولكن على الفنيين والعمال الذين يجب أن يتدربوا على تخصص ما فى تطبيق أو آخر من تطبيقاته، ومن بين تلك التخصصات التى يعتز بها علماء الاجتماع تحت عنوان 'تقسيم العمل' تجعل من المستحيل أن يعمل العامل عملا يتسم بالذكاء. وهذا يختلف تماما عن الحرفيين فيما فات من الزمان، فقد تحولوا إلى مجرد عبيد للآلات التى توحدوا معها فى جسد واحد. وما عليهم إلا أن يقوموا دوما بشكل آلى ببعض الحركات وبنفس الشكل حتى يضمنوا ألا يضيع من الوقت أقله كما تتطلب معظم الطرق الحديثة، والتى يُفترض أنها تمثل أكثر مراحل 'التقدم' تطورا. والحق أن المقاصد لا تزيد عن الإنتاج بأكبر كم ممكن، ولا تهمُّ الجودة فتيلا، فالكمُّ وحده هو المهمّ، وهو الأمر الذى يعود بنا إلى الملاحظة التى ألقيناها فى سياق مختلف عن أن الحضارة الحديثة يمكن أن تُوصفَ حقا بالحضارة الكمِّيَّة وهى طريقة أخرى للقول بأنها حضارة ماديّة.

وعلى كل من يرغب فى برهان غير ذلك على تلك الحقيقة أن يبحث عنها فى الأهمية القصوى التى وصلت إليها العوامل الاقتصادية اليوم سواء أكان ذلك فى حياة الشعوب أم الأفراد، فالصناعة والتجارة والتمويل تبدو كما لو كانت الأمور الوحيدة المهمة ويتفق هذا مع الحقيقة التى ذكرناها سلفا من أن التميز الاجتماعى الوحيد الذى بقى لهم هو الذى يقوم على الثروة المادية فحسب. والسياسة تبدو خاضعة تماما للتمويل، والمنافسة التجارية تبدو كما لو كانت هى العامل المسيطر على علاقات الشعوب وربما لم يزد ذلك عن المظاهر، وأن

هذه العوامل ليست فى الحقيقة أسباب بقدر ما هى وسائل للفعل، ولكن اختيار وسائل كهذه هو علامة واضحة على شخصية الفترة التى تناسب وجودهم. زد على ذلك أن المعاصرين مقتنعون بأن ما يحرك الأحداث فى التاريخ ليس إلا الأحوال الاقتصادية حتى إنهم يتخيلون أن الأمور قد كانت هكذا منذ الأزل، فقد اختُرعت نظرية تُفسر كل شىء بمدلول العوامل الاقتصادية فحسب، وقد تسمت باصطلاح ذو مغزى هو 'المادية التاريخية '. وفى هذه المسألة أيضا نرى تأثير تلك المقترحات الموحية التى أشرنا إليها سابقا وتبلغ قوة إيحائها أعظم درجاتها كلما تقاربت مع ميول العقلية العامة، ونتيجة تلك المقترحات أن تسنمت العوامل الاقتصادية قياد كل شىء يجرى فى دائرة المجتمع. ومن الصحيح أن الجماهير كانت تُقاد بشكل أو آخر حتى إن المرء يمكن أن يقول بأن دور الجماهير فى التاريخ لا يخرج عن السماح لغيرها بقيادتها، ذلك أنها لا تمثل إلا عنصرا سالبا ومجرد 'مادة' بالمعنى الأرسطى. أما قيادتهم اليوم فلا تستلزم إلا إنفاق بعض الأمور المادية الصرف، والكلمة هنا بمعناها الدارج، وهذا يبين الدرك الذى وصل إليه زماننا من الانحطاط. وفى الوقت نفسه يجرى الإيحاء إلى هذه الجماهير بأنهم لا يُقادون، وأنهم يتصرفون بتلقائية بحيث يحكمون أنفسهم، وواقعة أنهم يصدقون ذلك الهراء هى علامة على مدى الغفلة التى يعمهون فيها.

وحيث إننا نتناول العوامل الاقتصادية، فسوف ننتهز الفرصة لعرض وهْم سائد فى هذا الصدد، وهو افتراض أن العلاقات التى تقوم فى مجال التبادلات التجارية يمكن أن تعمل على التقريب والتفاهم بين الشعوب، ولكن الواقع أن نتائج تلك العلاقات لا تجرُّ إلا عكس ذلك. فالمادة كما نوهنا دائما هى التعدد والانقسام بالضرورة، وهى لذلك مصدر الصراع والتعارض، وسواء أكان ذلك بين شعوب أم أفراد، فإن مجال الاقتصاد لا يمكن أن يقوم إلا على مصالح متعارضة. فالغرب لا يتعين عليه الاعتماد على الصناعة ولا على العلم الحديث الذى أصبح مربوطا بها لا انفصال له كأساس للتفاهم مع الشرق، وإذا عنَّ للشرقيين أن يقبلوا تلك الصناعة كضرورة مؤقتة لا تَسُرُّ لأنها لا يمكن أن تساوى أكثر من ذلك، فسوف تكون لهم سلاحا فى مقاومة غزو الغرب دفاعا عن وجودهم. ويجب أن نفهم أن الأمور لابد وأن تكون هكذا، فالشرقيون الذين يزاولون المنافسة الاقتصادية مع

الغرب رغم الغضاضة التى يشعرون بها تجاه مثل هذا النشاط يفعلون ذلك بغرض واحد هو التخلص من سيطرة أجنبية قائمة على مجرد القوة الغاشمة، وعلى القوة المادية التى توفرها الصناعة ذاتها، فالعنف لا يولد إلا العنف، ولكن يجب أن نعلم أيضا أن الشرقيين ليسوا هم من سعى إلى الحرب فى هذا المجال.

وبعيدا عن مسألة العلاقة بين الشرق والغرب، من السهل أن نرى أن من أعظم الأمور جلاءً فى مسألة التطور الصناعى هى أن آلات الحرب يجرى تحسينها حثيثا لزيادة قدرتها على التدمير إلى حد هائل. وهذا وحده كفيل بنقض كل ادعاءات 'السلام' الحالم للمعجبين 'بالتقدم' الحديث، إلا أن الحالمين والمثاليين لا أمل فى إصلاحهم، فلا حدود لقدرتهم على ابتلاع الأكاذيب. و'النزعة الإنسانية' التى تفشت لا تستحق النظر بجدية، ولكن من الغريب أن يتحدث الناس عن إنهاء كل الحروب فى زمن بلغت فيه الخسائر الناتجة عنها حدودا لا سابقة لها، وليس ذلك فقط نظرا لتضاعف وسائل الدمار ولكن أيضا لأن الحروب لم تعد تثور بين جيوش صغيرة نسبيا من محترفى القتال، ولكن الناس من الجانبين يُلقَون فى أُوارها جميعًا بلا تمييز بمن فيهم أقلهم استعدادًا لأداء تلك الوظيفة. وهنا مرة أخرى يتضح مثل صارخ للاضطراب الحديث، وهو حقا محمل بالمعانى لمن يهتم بالتفكُّر فيه، فقد أتى الزمن الذى تعتبر فيه 'هبة الجماهير' أو 'التعبئة العامة' أمورا طبيعية، وأن تتجه عقول الجميع باستثناءات صغيرة إلى قبول فكرة 'الأمة المسلحة'. ونرى فى هذا أيضا نتيجة للاعتقاد بقوة الأرقام وحدها، حيث يتلازم تحريك قوى ضخمة من المقاتلين مع الشخصية الكمية للحضارة الحديثة، وفى الوقت ذاته تجد دعاوى المساواة موقعا لها هنا، كما تجدها فى أنظمة مثل 'التعليم الإلزامى' و'الرأى العام'. ولنزد على ذلك أن تلك الحروب الشاملة لم يُمكِّن لها إلا ظاهرة معاصرة معينة هى تكوُّن 'الأمم الدول'، نتيجة تحطيم النظام الإقطاعى من ناحية، ومن ناحية أخرى نتيجة تقطيع أوصال الوحدة العليا لمسيحية القرون الوسطى، ودون أن نتوقف للتأمل فى اعتبارات تبتعد بنا عن مسارنا فلنشر إلى أن الأمور قد تدهورت إلى الأسوإ بإنكار أية سلطة روحية، والتى ستكون فى أية ظروف طبيعية حكمًا عدلا، حيث تعلو بطبيعتها على الصراعات التى تنشأ فى المجال السياسى. وإنكار السلطة الروحية هو المادية العملية، فحتى أولئك الذين لا يكذِّبون نظريا بالسلطة الروحية يجحدون

عليها عمليا أى نفوذ أو سلطة على المجال الاجتماعى، وبنفس الطريقة التى يقيمون بها فاصلا بين الدين وبين شئون حياتهم اليومية، ويتجلى نفس المنظور العقلى سواء أكان ذلك جهرا فى حياتهم العامة أم سرا فى شئونهم الخاصة.

وحتى لو سلمنا بأن التطور المادى له بعض المزايا بالرغم من أن ذلك قد يكون بشكل نسبى للغاية، فإن رؤية النتائج التى تحدثنا عنها يؤدى بالمرء إلى التساؤل عما إذا لم تكن العيوب قد تجاوزت تلك المزايا بكثير. ونحن نذكر ذلك دون إشارة لما هو أبعد مقاما وجرت التضحية به من أجل ذلك الشكل من التطور، فنحن لا نتحدث عن المعارف العليا التى نُسيت ولا عن النشاط الفكرى الذى ألقى به ولا عن الروحية التى اختفت. ونؤكد أن مجرد التفكر فى الحضارة الحديثة فى حد ذاتها لو قورنت المزايا والعيوب اللتان نتجتا عنها فإن النتيجة ستكون سلبية. وتستحيل الاختراعات التى تتزايد اليوم بخطى متسارعة إلى شىء أكثر خطرا حيث تلعب على قوى فى الطبيعة يجهل طبيعتها الحقيقية من يستخدمون تلك المخترعات، وهذا الجهل هو أفضل برهان على قلة قيمة العلم الحديث كأداة للتفسير، أى باعتباره معرفة حتى فى نطاق مقصور على العالم العضوى. وفى الوقت نفسه فإن حقيقة أن هذا الجهل لا يعترض طريق التطبيقات العملية فى شىء يثبت أن ذلك العلم فى الحقيقة موجه إلى خدمة اتجاه مغرض، وأن الصناعة هى المقصد الحقيقى من كل بحوثه. والخطر الكامن فى تلك المخترعات حتى لو لم تكن مُختَرعة بغرض دمار الجنس الإنسانى هو التسبب فى أكبر عدد من المصائب التى أصبحت فى زيادةٍ واضطرادٍ دون ذكر الاضطرابات الخفية التى تُسببها فى البيئة المادية، وأن ذلك سيحدث بمعدل يصعب التنبؤ به كما أسلفنا القول، وليس من غير المحتمل أن العالم الحديث سيؤدى بيده إلى نهايته التى ستكون تلك المخترعات منها بمثابة الأدوات التى تحقق الانهيار ما لم يتوقف عن 'تقدمه' فى هذا الاتجاه، إذا كان لا يزال هناك وقت يكفى.

ولا يكفى أن نرفض الاختراعات الحديثة على أساس خطورتها فحسب، فهناك ما هو أكثر من ذلك خطورة فى المسألة، فنحن نسمع عن ادعاءات 'بفوائد' متفق عليها لما يسمى 'التقدم'، ويمكن أن نتنازل وندعوه كذلك مع العلم والاحتراز من أنه تقدم مادى فقط، ولكن أليست تلك 'الفوائد' التى يعجبهم شأنها هى فوائد وهميَّة إلى حد كبير؟ فمعاصرونا

يدَّعون أنهم بصدد تعظيم 'الرفاهية' على هذا المنوال، وفى حسباننا أن الهدف الذى وضعوه لأنفسهم لو تحقق لهم فلن يساوى كل هذا الإنفاق والعناء، ولكن ما هو أدهى أن تحقيق ذلك الهدف أمر مشكوك فيه. ففى بداية الأمر لابد من التحسب لحقيقة اختلاف أذواق واحتياجات الناس عن بعضها بعضًا، وأنه لا زال هناك من يرغب فى تجنب الفوضى الحديثة فى التولُّه بالسرعة، ولكن لم يعد بوسعهم تحقيق ذلك. فهل يستطيع أحد أن يُعلن أن تلك 'الفوائد' التى ألقيت على هؤلاء الناس عسفا هى مضادة لطبيعتهم؟ وسوف يقال له إن هؤلاء الناس اليوم قِلَّة، وهذا مبرر لمعاملتهم ككمٍّ مهمل سواء أكان فى هذا الشأن أم فيما يتصل بأمور السياسة، فقد منحت الأغلبيَّة لذاتها حق سحق الأقليات، والتى لا حق لها فى الوجود فى نظرهم، حيث إن مجرد وجودها يتحدى جنون المساواة. ولكننا إذا أخذنا فى اعتبارنا الجنس البشرى بكامله بدلا من الاقتصار على العالم الغربى، فسوف يكون للمسألة أوجه مختلفة، فالأغلبيَّة التى تحدثنا عنها ستصبح هى الأقليَّة. وهنا يلجئون إلى جدليَّة مغايرة فى هذه الحالة فيخرجون علينا بمتناقضة غريبة عن 'تفوقهم'، وينتوى 'دعاة المساواة' فرض حضارتهم عسفا على بقيَّة العالم، ويخلقون المتاعب لشعوب لم تطلب منهم شيئا، وحيث إن ذلك 'التفوق' لا وجود له إلا من وجهة النظر الماديَّة فحسب فمن الطبيعى أن أكثر أشكال المعاملة وحشيَّة هى تلك التى تُتَّبَع لتأكيد ذلك الادعاء. ولكى نُسقط كل دواعى الخلط حول هذه النقطة نقول إذا كانت الجماهير فى عمومها تقبل حجج تلك 'الحضارة' بحسن نيَّة فهناك من لا تمثل لهم تلك الحضارة إلا نفاقا أخلاقيا، يُستغل قناعا للغزو أو الطموحات الاقتصادية. وهى حقبة غريبة حقا تلك التى يمكن فيها إقناع هذه الكثرة من الناس بالاعتقاد أن الشعوب ستجد سعادتها فى اختزالها إلى التبعية، وفى حرمانها من كل ما له قيمة فى نظرها أى من حضارتها ذاتها، وإجبارها على تبنى عادات والخضوع لمؤسسات صنعت لشعوب أخرى، وتحديد أعمالهم فى أحط أنواع الأعمال قاطبة، وكل ذلك من أجل أن يتبنوا أمورا لا نفع لهم فيها، وما يحدث حاليا هو أن الغرب الحديث لا يستطيع احتمال فكرة أن يعمل الناس لفترات أقل ويسعدون بالقليل الذى يكسبوه، ذلك أنه لا يهم إلا الكمُّ، وكل ما يفلت من إدراك الحواس يعتبر غير موجود، ومن المسلمات الشائعة أن الشخص الذى لا يعانى من التوتر، والذى لا ينتج

كثيرا بالمقياس المادى هو شخص 'كسول'.

وبرهانا على ذلك دون التحدث عن الآراء المنتشرة عموما عن الشعوب الشرقية يكفى أن نلاحظ كيف يُنظر إلى طوائف المتأملين حتى فى الدوائر التى تعتبر نفسها دينية، ففى مثل هذا العالم لم يعد هناك مكان للذكاء ولا لأى شىء آخر ذى طبيعة جَوّانيّة، فهذه أشياء لا تُرى ولا تُلمس ولا تُعدُّ ولا توزَن، وليس هناك مكان إلا للفعل الظاهر بكل أشكاله، بما فيه الأمور المغرقة فى التفاهة، ولهذا السبب يكسب جنون الرياضة الأنجلوساكسونى أرضا جديدة كل يوم فإن المثل الأعلى للعالم الحديث قد صار 'الحيوان الإنسانى' الذى طور من قواه العضلية إلى أقصى حد، ويُدعى أبطالها رياضيين حتى لو كانوا مجرد متوحشين، فهم من يلهب الحماس العام، وتنافسهم هو الذى يحكم الاتجاهات الانفعالية للجماهير، وعالم وصلت فيه الأمور إلى هذا الحد قد سقط بلا شك إلى أحط مراتبه، ويبدو قريبا من نهايته.

ودعنا نتفكر فى الأمور لحظة من وجهة نظر الذين تمثل لهم 'الرفاهية' المادية مثلا أعلى ولذلك يفرحون بكل تحسينات الحياة التى يجود بها 'التطور' الحديث فهل هم واثقون تماما من أنهم ليسوا مخدوعين؟ وهل حقيقة أن الناس أسعد حالا مما كانوا عليه سلفا لمجرد حيازتهم لوسائل اتصال أسرع أو لأن حياتهم صارت أكثر صخبا وأكثر تعقيدا أو أشياء أخرى من هذا القبيل؟ ويبدو لنا أن العكس هو الصحيح، فعدم الاتزان لا يمكن أن يكون شرطا لسعادة حقيقية، ثم إنه كلما زادت احتياجات المرء زاد احتمال أن يكون بحاجة إلى شىء ما، وإذن سيكون تعسًا لهذا السبب، وقد عكفت الحضارة الحديثة على مضاعفة الاحتياجات المفتعلة، وبأكثر مما تستطيع إرضاءه، فبمجرد أن يبدأ المرء المسير على هذه الطريق يصعب التوقف، والحق أنه ليس هناك سبب واضح للتوقف عند أية نقطة معينة، ولم يكن من الصعب على الناس أن يعيشوا دون حاجات لم تكن موجودة، ولم يحلموا حتى بها، ولكنهم الآن محكوم عليهم بالعناء إذا هم افتقدوا تلك الحاجيات حيث ينتحلون لها اسم الضروريات إلى الدرجة التى جعلت تلك الحاجيات ضرورية لهم حقا. وهكذا يصطرع الناس بكل الطرق الممكنة لحيازة الاكتفاء المادى، وهو الأمر الوحيد الذى يستطيعون تفهمه، فلا همَّ لهم إلا 'كسب المال' لأن المال هو ما يتيح لهم الوفاء

بتلك الحاجات، والتى كلما زاد رصيدهم منها زادت رغبتهم فيما هو أكثر، حيث يهرعون لاكتشاف حاجيات جديدة، ويصبح ذلك الهوس غاية وحيدة لحياتهم.

ومن هنا نشأت المنافسة الوحشية التى أعلى من شأنها بعض التطوريين فرفعوها إلى مرتبة القانون العلمى تحت اسم 'الصراع من أجل البقاء'، والتى لا تربو نتائجه المنطقية عن أن 'الأقوى' من الناحية المادية هو الذى له حق فى الوجود. ومن هنا أيضا جاء شعور الحسد والتباغض عند من لا ثروة له تجاه من يملكونها، فكيف تأتى لأناس تربوا على مبادئ المساواة ألا يثوروا على عدم المساواة التى يرونها فى الآفاق حولهم وفى أشد المراتب مادية على الإطلاق، وهى المرتبة التى من المفترض أن يكونوا حساسين لها وواعين بها لأنها من مستواهم الكثيف. وإذا كان من قدَر الحضارة الحديثة أن تتحطم على فوضى الشهوات التى أيقظتها فى الجماهير، فلا بد أن يكون المرء أعمى كى لا يرى أن هذا هو الجزاء العدل لخطيئتها الأساسية، ولكى نتجنب لغة الأخلاقيات نقول إن هذا هو الجزاء العدل لنتائج أعمالها فى المجال ذاته الذى وقعت فيه تلك الأعمال. ويقول الإنجيل، 'كل من حمل السيف بالسيف يموت'، وأولئك الذين يطلقون القوى الحيوانية للمادة سيهلكون بها، وتطحنهم المادة ذاتها، ولن يكونوا سادتها آنئذٍ بعد أن أطلقوها بغفلتهم من عقالها فى حركتها العشوائية، ولا أمل لهم فى أن يتحكموا إلى ما لا نهاية فى طريقها المدمر. ولا يهم حقا ما إذا كان ذلك بفعل قوى الطبيعة أو بفعل قوى دهماء البشر أو بفعل كليهما معا. وفى كل الحالات ليس هناك فعالية إلا لقوى المادة، وهذا سيحطم كل من شاء أن يتحكم فيها دون أن يرفع نفسه عن قانون المادة. ويقول الكتاب المقدس أيضا، 'وإذا انقسم بيت على ذاته، فلا قدرة له على القيام'، وهذا القول ينطبق تماما على العالم الحديث بحضارته المادية التى لا يمكنها بحكم طبيعتها إلا أن تثير الصراع والفرقة فى كل مكان. والاستنتاج واضح دون اللجوء حتى إلى اعتبارات أخرى، فمن الممكن الاستقراء بكل تأكيد أن هذا العالم سينتهى نهاية مأساوية ما لم يحدث تغيُّرٌ جذرى عاجل يتمخض عنه نكوصٌ كامل عن اتجاهه.

وعندما تحدثنا عن مادية الغرب كنا واعين بأن البعض سيلوموننا على تخطى الحديث عن بعض العناصر التى يبدو على الأقل أنها عملت على التخفيف من حدة تلك المادية، والواقع أنه إذا لم يكن هناك مثل هذه العناصر، فالأرجح أن تلك الحضارة كانت ستهلك

منذ فترة. ولسنا نعارض فى وجود هذه العناصر بأى شكل، ولكن من ناحية أخرى يجب ألا يكون هناك أوهام حول هذا الموضوع، فأولا هناك الحركات الفلسفية التى تتخذ أسماء ’الروحانية‘ و’المثالية‘، ولا يصح أن تدخل فى تعداد هذه الحركات كما هو شأن الميول المعاصرة إلى الأخلاقية والعاطفية. وقد بسطنا سلفا أسبابنا لذلك، ونرغب فقط فى التذكرة بأن وجهات النظر تلك بالنسبة إلينا ليست أقل ’دنيوية‘ من المادية العملية أو النظرية، كما أنها بعيدة عنها فى الواقع أكثر مما يبدو فى ظاهرها. ومن ناحية أخرى فإذا كان هناك حقا بقايا من روحية حقيقية، فقد بقيت رغم أنف النظرة الحديثة التى تعارضها. ومثل تلك البقايا من الروحية الغربية لا توجد إلا فى الدين، ولكننا أشرنا سلفا إلى كيف أن الدين اليوم قد انكمش، وما بقى منه ليس إلا ما يحمله المتدينون من مفاهيم ضيقة مملة حُرِمت من الاتجاه العقلى بدرجة مخجلة، والعقل هو ’الروحية‘ الحقة، ولو أن هناك إمكانيات معينة لا زالت قائمة فى ظل تلك الأحوال فليست إلا فى حالة كمون ولا يعدو تأثيرها الفعال أقل القليل. ولكن من اللافت للنظر حقا كيف أن حيوية التراث الدينى لا زالت صامدة لمحاولات تحطيمها وتخريبها على مدى قرون، ورغم الحالة الافتراضية الهشة التى وصلت إليها. ولابد أن يرى القادرون على التفكر فى هذه المقاومة علامات على أمر أكثر من مجرد القوة الإنسانية، ولكننا يجب أن نكرر مرة أخرى أن هذا التراث لا ينتمى إلى العالم الحديث، وليس أحد عناصره المؤسسة، ولكنه العكس والمقابل التام لميوله وتطلعاته. ويجب أن نعترف بهذا صراحة بدلا من البحث عن تصالحات، فلا وجود لغير المعارضة بين الروح الدينية الحقيقية والعقلية الحديثة، وأى حل وسط سيؤدى إلى هضم حق الأولى ومحاباة الثانية، ولن يمنع حتى عدوانية العقلية الحديثة التى تهدف إلى التدمير الكامل لكل ما من شأنه أن يعكس فى الحياة الإنسانية حقيقة أسنى من ’الإنسانية‘.

ويقال إن الغرب الحديث مسيحى، ولكن هذا غير صحيح، فالنظرة الحديثة مناهضة للمسيحية لأنها فى أساسها لا دينية، وهى لا دينية لأنها لا تراثية من مفهوم أعرض، وهذا هو سَمْتُها المميز وما يجعلها على ما هى عليه. ولا شك فى أن شيئا من المسيحية قد سرى فى أيامنا فى تلك الحضارة المناهضة للمسيحية، ولا زال أكثر ’التقدميين‘ من ممثليها خاضعين لنفوذ مسيحى سواء أكان رغما عنهم أم حتى دون وعى منهم، ولكنه نفوذ غير مباشر،

مهما كان الانقطاع بين الحاضر والماضى، ولكنها لا يمكن أن تكون قطيعة كاملة إلى الدرجة التى ينقطع فيها التواصل. ونؤكد أن كل ما له قيمة فى العالم الحديث قد جاء إليه من المسيحية، إذ إن المسيحية اصطحبت معها إرث كل التراث الذى سبقها، وقد ظل هذا التراث حيا طالما سمحت له حالة الغرب بذلك، ولا زال يحمل إمكانياته الكامنة. ولكن أين اليوم من يعى هذه الإمكانيات وعيا حقيقيا من بين الذين يصفون أنفسهم بالمسيحيين؟ وأين يوجد حتى فى الكاثوليكية الذين يعرفون المعنى الأعمق للعقيدة التى يجاهرون بها، ولا يرضون أن يكون إيمانهم بها سطحيا، وبصورة وجدانية أكثر من كونها عقلية، ومع ذلك فهم 'يعرفون' حقيقة التراث الذى بين أيديهم ونحن نأمل أن نرى برهانا على وجود قليل من هؤلاء، لأن ذلك سيكون بمثابة أعظم أمل وربما الأمل الوحيد فى خلاص الغرب، ولكن علينا أن نسلم بأنه حتى الآن لم نلتق بأحد منهم، فهل على المرء أن يفترض أنهم يعيشون فى خلوات معزولة شأن بعض حكماء الشرق؟ أم أن على المرء أن يتخلى حتى عن ذلك الأمل الأخير؟ لقد كان الغرب مسيحيا فى العصور الوسطى ولكنه لم يعد كذلك الآن، وإذا قال أحد بأنه قد يصبح مسيحيا فى يوم ما فلن يجد أكثر منا ترحيبا بهذا الأمل، وعسى الله أن يكون ذلك عاجلا بأكثر مما يقودنا إليه الاعتقاد فيما يجرى حولنا، ولكن لا يخدعن أحد نفسه بذلك فلو أن ذلك قد حدث حقا فإن العالم الحديث يكون قد وصل إلى نهايته.

8. الاجتياح الغربى

لقد نبع الاضطراب الحديث فى الغرب كما بينَّا سلفا، وظل متمركزا به حتى سنوات قليلة مضت، ولكنه الآن ينتشر فى كل مكان، وتجرى فى الآن ذاته عملية لا يصح تجاهل خطورتها، فحتى الشرق يخضع كما يبدو لتأثيرها. ومن الصحيح أن الاجتياح الغربى ليس أمرا جديدا ولكنه كان قاصرا على السيطرة بالقوة الغاشمة على غيرهم من الشعوب، ولم تتعد آثار ذلك الاجتياح إلا ما تمخض عن الاقتصاد والسياسة. ورغم جهود الدعاية التى عملت تحت كثير من الأقنعة فقد ظل سلوك العقل الشرقى بعيدا عن كل انحراف، وظل تراث الحضارة القديمة حيا بكامله. أما اليوم فقد ظهر شرقيون قد تغرَّبوا تماما وهجروا تراثهم، وتبنوا كل تصورات النظرة الحديثة، وهذه العناصر التى تشوهت عن طبيعتها بعد أن أضلها التعليم فى الجامعات الأوروبية والأميريكية قد أصبحت مصدرا للقلاقل والاضطراب فى بلادها. وفى نفس الوقت يجب ألا نبالغ فى أهميتها على الأقل فى هذه اللحظة، فإن الغرب يتصور أن تلك القلة الصاخبة من الأفراد هى التى تمثل الشرق اليوم، ولكن الحق أن تأثيرها ليس عميقا ولا منتشرا حتى الآن. وهذا الخطأ سهل التفسير حيث إن الشرقيين الحقيقيين يأنفون من أن يُعرفوا، وهم لذلك موضع تجاهل الغرب، ولكن المحدثين هم الذين يخوضون فى خضم الخُطب والكتّابات ويستغرقون فى كل الأنشطة الظاهرية، ولكن من الحقيقى أن هذه الحركة المناهضة للتراث قد تكتسب أرضا مع الزمن، ولذلك يجب الاعتبار فى كل الحتميات، بما فيها أكثرها شناعة. إن الروح التراثية تميل إلى الانطواء على الذات وقد أصبحت المراكز التى تحافظ على التراث بكليته أكثر فأكثر انغلاقا وصعوبة، وهذا التعميم للفوضى مناظر تماما لما يجب أن يحدث فى المرحلة الأخيرة من كالى يووجا العصر المظلم.

ولنصرح بوضوح أن النظرة الحديثة غربية قحة، وأولئك الذين تأثروا بها يجب أن يُصنفوا على المستوى الفكرى كغربيين حتى لو كانوا شرقيين بالميلاد، وكل الأفكار الشرقية عدائية بالنسبة لهم، وجهلهم بالنظريات التراثية هو عذرهم الوحيد لعدائهم تجاهها. وما يبدو ملفتا للنظر بل متناقضا هو أن أولئك الأفراد المساعدين 'للتغرب' من وجهة النظر الفكرية أو بالأحرى مناهضين للفكر الحق يظهرون أحيانا كمناهضين للغرب فى ميدان السياسة. ولكن ليس هناك ما يستغرب فى ذلك فهم الذين يناضلون لإقامة 'الأمة الدولة' فى الشرق، وكل أنواع القومية بالضرورة تعارض النظرة التراثية، وإذا كانوا يرغبون فى مقاومة السيطرة الأجنبية فإنهم يلجئون إلى طرق غربية، وبنفس الأسلوب الذى يناهز ما تلجأ إليه شعوب الغرب عندما تحارب بين بعضها بعضا، وربما يعود مبرر بقائهم على قيد الحياة إلى هذا الأمر. والحق أن الأمور لو وصلت إلى الحد الذى يحتم فيه استخدام تلك الطرق فإن نوع العمل المطلوب لن يقوم به إلا أولئك الذين قطعوا آصرتهم مع التراث. ومن الممكن إذن أن تستخدم تلك العناصر مؤقتا لهذا الغرض ثم تُبادُ مثلها فى ذلك مثل الغربيين أنفسهم، ثم إنه يصبح من المنطقى أن الأفكار التى ينشرها الغربيون ستنقلب عليهم حيث إن تلك الأفكار من نوع لا يتأتى منه إلا الانقسام والخراب، وسوف تؤدى بالعالم الحديث إلى التهلكة بشكل أو آخر، وقليلا ما يهم إذا كانت التهلكة ناتجة عن صراع بين الغربيين أنفسهم أم بين الأمم أم بين الطبقات الاجتماعية، أو كما يدعى البعض نتيجة هجوم من الشرقيين المتغربين، وهناك احتمال آخر هو أن يهلك الغرب نتيجة كارثة يؤدى إليها 'تقدم' العلم الحديث وعلى كلٍّ فإن المخاطر التى يواجهها العالم الغربى هى من صنعه وتنبثق عنه.

والسؤال الوحيد الذى يطرح من جراء ذلك هو هل سيتعرض الشرق لأزمة عابرة وسطحية نتيجة نفوذ الحداثة الذى تخلله، أم أن الغرب سيأخذ معه فى انهياره الجنس الإنسانى بكامله؟ وسوف يكون من الصعب حاليا الإجابة على هذا التساؤل بما لا يقبل الجدل فالعقليتان المتعارضتان تتعايشان الآن جنبا إلى جنب فى الشرق، ولكن السلطة الروحية الكامنة فى التراث، والتى لا يعلم عنها مناهضوها شيئا قد تنتصر على قوى المادة عندما تكون قد قامت بدورها، وسوف تشتتها كما يشتت النور الظلام، ويمكن أن نقول

أنها ستنتصر بالضرورة آجلا أم عاجلا، ولكن من المحتمل أن تجىء فترة من الظلام الكامل قبل أن يحدث هذا، فالروح التراثية لا تستطيع أن تموت، حيث إنها بجوهرها فيما فوق الموت والتحولات، ولكنها تستطيع أن تنسحب تماما من عالم الظاهر، وعندئذٍ تتحقق ’نهاية عالم ما‘، ويمكن أن نستنتج من كل ما قيل أن هذه الحتمية فى المستقبل غير البعيد ليست بعيدة الاحتمال فى خضم الاضطراب الذى انطلق من الغرب، وهو يفيض حاليا على الشرق ويمكن أن نشهد فيه بداية النهاية، والعلامة الأولى للحظة التى تحدثت عنها التعاليم التراثية الهندوسية عندما يجب على المذاهب المقدسة أن تنغلق فى قمقم ستبزغ منه مرة أخرى فى فجر عالم جديد.

ولكن لنكف عن التوقعات، وننتبه إلى وقائع الأحداث الحالية، فالغرب لا شك يجتاح كل شىء، وقد ظهرت آثار هذا الاجتياح فى أول الأمر فى نطاق الماديات حيث إنها تقع مباشرة فى متناوله، ويغزو بالعنف فى طريقه كما يغزو بالتجارة وضمان استغلال موارد البلاد الأخرى، ولكن الأمور الآن تتفاقم إلى أبعد من ذلك. فقد نجح الغربيون مع جنوحهم دوما إلى التبشيرية، كما هو دأبهم أن ينشروا آراءهم المادية المناهضة للتراث بين شعوب أخرى وفى حين أثَّر الشكل الأول من الغزو على أجساد الناس فحسب فهذا الشكل الجديد يسمم عقولهم، ويقتل كل روحية فيهم، والواقع أن الشكل الأول من الغزو هو الذى جعل الشكل الثانى ممكنا، وبذلك يكون الغرب قد نجح فى فرض نفسه على بقية العالم بالقوة الغاشمة وكما يمكن أن تكون الحال بالضرورة، حيث إن امتياز حضارته الوحيد يقع فقط فى هذا المجال وحده، وهى حضارة منحطة من أى وجهة نظر ممكنة. والاجتياح الغربى هو اجتياح المادية فى كل صورها، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، وليس من تلك الأقنعة المنافقة، وليس من مقولات الأخلاقيين، وليس من الخطابة الإنسانياتية، وليس من خداع الدعاية التى تعلم كيف تلمّح حتى تصل إلى غاياتها المدمرة، ليس من هؤلاء جميعا من يستطيع التصدى لمقولة أن اجتياح الغرب ليس إلا اجتياح المادية، ولن يلاحى فى هذا إلا غرّيرٍ أو خبيث له مصلحة فى تأييد مسألة هى حقا ’شيطانية‘ بمعنى الكلمة

الدقيق.[29]

ومن الغريب أن يتزامن مع الاجتياح الغربى الذى يجتاح كل شيء ظهور قوم يتصايحون فى رعب ويحذرون من تسلل بعض الأفكار الشرقية إلى الغرب، فأى دجل جديد هذا؟ وبالرغم من رغبتنا فى قصر أنفسنا على أمور عامة فلا مناص هنا من قول بعض الأمور عن كتاب نشر حديثا كتبه إنرى ماسّىِ، وعنوانه ’دفاع عن الغرب‘، وهو واحد من أدل مظاهر تلك العقلية، فهو كتاب ملئ بالخلط والتناقض، ويبين مرة أخرى إلى أى درك هبط أولئك الذين يرغبون فى الثورة على الفوضى الحديثة، وكلهم عاجزون فى واقع الأمر عن القيام بذلك بشكل فعال، حيث إنهم لم يتبينوا طبيعة ما يثورون عليه، والكاتب أحيانا ما يُنكر نية الهجوم على الشرق الحقيقى، ولو أنه اقتصر بالفعل على نقد الأوهام ’الشرقية الزائفة‘، أى تلك النظريات الغربية القحة، التى تُنَشَرُ خارج الغرب تحت أسماء شرقية مضللة هى مجرد منتج آخر لحال عدم التوازن المعاصر، فقد كان من شأن ذلك أن يحوز موافقتنا، خاصة وقد قمنا قبله بكثير بلفت النظر إلى المخاطر الحقيقية لهذا الأمر، بالإضافة إلى بيان ركاكته من المنظور الفكرى، ولسوء حظه أنه لا يقف عند هذا الحد، ولكنه شعر بالحاجة لأن ينسب إلى الشرق مفاهيم لا تفضُل هذه النظريات بحال، ولكى يتمكن من ذلك لجأ إلى مقتطفات من بعض المستشرقين الرسميين، والتى تشوهت فيها النظريات الشرقية إلى ما يقرب من الكاريكاتير، فماذا عساه يقول لو أن أحدا تبنى نفس المنهج فى التعامل مع المسيحية وادعى أنه ينتقدها على أساس أعمال ’النقاد المؤهلين‘ من الجامعة؟ وهذا بالضبط ما فعله بالنظريات الهندية والصينية، ذلك مع الظروف المحبطة التى تبين فيها أن مصادره من الغربيين الذين اعتمد على شهادتهم لا يفقهون شيئًا مباشرًا عن تلك المذاهب، فى حين أن زملاءهم من النقاد الذين يشغلون أنفسهم بالمسيحية لديهم فكرة عن المسيحية على الأقل، بالرغم من أن عداوتهم لكل ما هو دينى تجعلهم لا يفهمونها حق الفهم، وزيادة على ذلك نضيف أننا قد حاولنا جهدنا أن نقنع بعض الشرقيين بأن العداوة

---

29 تعنى كلمة *satan* العبرية ’الخصم‘ الذى ’يقلب الأمور رأسا على عقب‘ وهذه هى روح الإنكار والكفر والانحراف، والتى هى مثيلة لقوة ’للتوجه إلى أسفل‘ *تاماس tamas*، وهى تعنى ’من الجحيم‘ بالمعنى التأصيلى للكلمة، وهى التى تحكم الكائنات فى طور التجسّد، ويرتكز عليها تطور الحضارة الحديثة بكليتها.

التى يستشعرونها فى أعمال بعض المستشرقين هى نتيجة سوء الفهم، وليست نتيجة أى انحياز متعمد، وذلك الكتّاب محمَّلٌ بنفس العداوة الكامنة فى النظرة المناهضة للتراث، ويحق لنا أن نسأل ماسِّى عما إذا كان حقا يرى من النافع أن يهاجم تراث الآخرين بينما يكافح ليستعيد تراث وطنه؟ ونقول 'النافع' لأن المسألة برمتها بالنسبة إليه قائمة فى مجال السياسة، وحيث إننا ننتهج منظورا مختلفا هو الفكر البحت فإن المسألة الوحيدة لدينا هى الحقيقة، إلا أن هذا الأمر بلا شك أعلى وأسمى من أن يجد فيها المجادلون أية مسرة، ومن المشكوك فيه أن تهمهم الحقيقة كثيرا بحكم أنهم من مُرَوِّجى الخلاف[30].

وقد هاجم ماسِّى من أسماهم 'الدعائيين الشرقيين' وهو تعبير يغصُّ فى حد ذاته بالتناقض الاصطلاحى كما نوهنا سلفا، فإن جنون الدعاية أمر غربى تماما، وهذا وحده يبين أن هناك سوء فهم عميق، وفى الواقع فإننا نستطيع تمييز مجموعتين من الدعائيين الذين يقصدهم أولها مكونة من الغربيين، فعندما ترى ألمانيين وروسيين فى قائمة ممثلى المنظور الشرقى فإن ذلك يعتبر أمرا مثيرا للضحك، ذلك إذا لم تكن علامة على أحط أنواع الجهل الذى يلف أفكارهم عن الشرق، وبعض الملحوظات التى ألقى بها الكاتب عن هذه المجموعة مناسبة للغاية، ولكن لماذا لم يكشف عن حقيقتهم؟ ونضيف إلى هذه المجموعة'الثيوزوفيين' الأنجلوساكسونيين ومن جرَّ جرَّهم ممن ابتدعوا فِرَقًا على المنوال ذاته، والذين لا تعدو مصطلحاتهم الشرقية أن تكون قناعا يغررون به السذَّج والجهلة، ويخفون وراءها أفكارا غريبة عن الشرق كما هى عزيزة على الغرب. والذين من هذا النوع أبعد خطرا من مجرد الفلاسفة، وذلك لادعائهم جَوَّانيَّة لا يمتلكون منها أكثر مما لدى الفلاسفة، ولكنهم يدَّعونها زيفا بهدف جذب من يحاول من الناس البحث عن شىء أفضل من التكهنات 'الدنيوية'، والذين لا يعلمون فى الفوضى الحالية الضاربة إلى أين يتجهوا، ونحن نعجب لماذا لم يذكر ماسِّى شيئا عنهم، أما بالنسبة إلى المجموعة الثانية فإننا نجد فيها عددا من الشرقيين المستغربين، والذين أشرنا إليهم سلفا، وجهل هؤلاء الناس بالأفكار

30 ونحن نعلم أن ماسّى لا يجهل أعمالنا، ولكنه اهتم بتجنب أية إشارة إليها، حيث إنها ستفضح لو فعل خطإ نظريته، وهذا السلوك ينتقص الصراحة لو اقتصرنا على القليل, لكن مثل هذا الحذف لا يخلو من فائدة، حيث إنه قد منع من طرح أمور يحسن أن تظل بطبيعتها خارج نطاق الجدل، فهناك دائما ما يبعث على الأسى عندما يرى المرء عجز الدنيويين عن الفهم حتى لو ظلت حقيقة النظرية المقدسة أعلى من أن تصلها تلك الهجمات.

الشرقية الحقيقية يضاهى جهل المجموعة الأولى، ولذلك لن يستطيعوا بتاتا نشرها فى الغرب، حتى لو رغبوا فى ذلك، والحق أن الهدف الذى حددوه لأنفسهم هو عكس ذلك تماما، حيث إنهم يهدفون إلى تدمير هذه الأفكار فى الشرق، ويستعرضون فى نفس الوقت أمام الغرب شرقهم الحديث، والذى صنع على أعينهم ليضاهى النظريات التى حُقنت فيهم فى أوروبا وأميريكا. ويجاهرون بعمالتهم للدعاية الغربية فى أحط أشكالها التى تعتمد على الذكاء السطحى، وهم خطر على الشرق فقط وليس على الغرب بحال، والذى ليسوا منه إلا مجرد انعكاس. أما الشرقيون الحقيقيون، فإن ماسّىِ لا يذكر أحدا منهم، ولابد أنه كان سيجد فى ذلك صعوبة جمَّة، لأنه بالتأكيد لا يعرف منهم أحدًا، وقد كان يجب أن يستلهم من عجزه الكامل عن ذكر اسم شرقى ليس من عملاء الغرب بعض أسباب للتفكير لتجعله يفهم أن 'الدعائيين الشرقيين' لا وجود لهم فى الحقيقة.

وإلى ذلك نجد أننا مضطرون إلى الحديث بشكل شخصى، وهو أمر ليس من قبيل العادة لدينا، ولكن التصريح التالى قد أصبح أمرا ضروريا، ففى حدود ما نعلم ليس هناك غيرنا ممن طرح الأفكار الشرقية الأصلية فى الغرب، وقد قمنا بذلك بالضبط كما يقوم به شرقى فى نفس الظروف، أى دون أدنى نية فى الدعاية أو الشيوع، وقصرًا من أجل أولئك الذين يستطيعون فهم المذاهب كما هى دون الحاجة إلى الحاجة لتشويهها بغرض تقريبها إليهم، ونضيف أنه بالرغم من انهيار الفكر فى الغرب فإن أولئك الذين فهموا رغم أنهم أقلية فليسوا قلائل كما كان متوقعا، وما كان يهدف إليه ماسّىِ هو مهمة من نوع مختلف تماما ولن نقول إن حماسه لقضيته هو السبب ولو أن النغمة السياسية لكتابه تبرر هذا الظن، وحتى نكون رحيمين به بقدر الإمكان فلنقل أن عقله مشوش بالخوف من اقتراب الحضارة الغربية من حتفها، وأن هذا قد أوحى إليه بوجود 'دعاية شرقية'. وفى الوقت ذاته نأسف لأنه لم يستطع تبين الأسباب الحقيقية التى ستؤدى حقا إلى انهيار الغرب، ذلك بالرغم من أنه أحيانا ما يُبدى قسوة عادلة تجاه جوانب معينة من العالم الحديث. وهذا هو السبب فى التأرجح المستمر فى موضوعه، فهو ليس متأكدا من الخصوم الذين يتعين عليه أن يواجههم من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن مستوى فهمه للتراث لم يمكنه من فهم جوهره الحق لأنه يخلط بينه وبين نوع بالغ السطحية من الاتجاهات المحافظة فى الدين

والسياسة.

وأفضل برهان على اضطراب عقل ماسِّى نتيجة الخوف هو ما يصف به 'الدعائيين الشرقيين' من غرابة السلوك بشكل لا يصدق. وبوده لو جعلنا نعتقد أنهم يتحركون بدافع كراهية وحشية للغرب، وأنهم يحاولون نقل تراثهم إليه كى يضرُّوه فحسب، أى أن يمنحوه أكثر ما يملكونه قيمة وما يشكل جوهر روحهم! ولا يملك المرء إلا الحيرة تجاه التناقضات الصارخة لتلك الفرضيات، إذ تنهار فى لحظة واحدة بعد أن عانى طويلا فى بنائها، إلا أنه يبدو أن الكاتب ذاته لم يفطن إلى هذا، فنحن نستنكف افتراض أنه كان واعيا بكل هذه الاستحالات النظرية، وقد اعتمد ببساطة على عدم تبصر قارئيه ليقنعهم بها. وسوف يكفى تفكر مبدئى قليل لتوضيح أن الأمر الأول الذى سيلجأ إليه الشرقيون حال كراهتهم للغرب بهذا العنف هو أن يتكتموا على مذاهبهم غيرة عليها، وسوف تتركز جهودهم على إنكارها على الغربيين، والحق أن هذا كان أحد أوجه اللوم التى وُجهَت إلى الشرقيين فيما سلف، وبمبررات أقوى من هذه. والحقيقة فى الواقع مختلفة تماما، فالممثلون الشرعيون للمذاهب التراثية لا يشعرون بالكراهة لأحد، وليس هناك سبب واحد لتحفظهم، ولكنهم يعتبرون طرح حقائق معينة لمن لا يستطيع فهمها أمرًا لا نفع فيه، ولكنهم لم يرفضوا أبدا طرحها على كل من يملك 'المؤهلات' اللازمة أيا كان موطنه، فهل هو خطؤهم أن يكون بين هؤلاء المؤهلين بعض الغربيين؟ فإذا عنَّ لجماهير الشرقيين أخيرا أن تشعر بالعداء للغربيين بعد أن كانت طوال زمن تنظر إليهم بلا مبالاة فخطأ من هذا؟ أفيجب علينا أن نلوم الصفوة لأنهم يصرفون وقتهم فى التأمل الفكرى بعيدا عن القلق فى عالم الظاهر؟ أم أن الخطإ هو خطأ الغربيين أنفسهم، والذين أصبح حضورهم صاخبا ولا يحتمل؟ وحالما صيغ السؤال كما يجب أن يكون فإن الإجابة تتضح عند الجميع، وحتى إذا سلَّم المرء بأن الشرقيين الذين أثبتوا حتى الآن صبرا ينبو عن التصديق قد عبروا عن رغبتهم فى السيادة على موطنهم فمن الذى يستطيع أن يقنع نفسه بملامهم؟ والحق أنه كلما اكتسبت بعض العواطف فاعلية على أرض الواقع فإن الأشياء نفسها يمكن أن تُقَوَّمَ بمعنى مختلف يصل إلى حد التناقض التام حسب الأحوال، فمثلا حينما يقاوم شعب غربى غزوًا أجنبيًّا فإن ذلك يسمى 'وطنية' ويستحق بذلك أعلى مراتب الثناء، ولكن حينما يقاوم شعب شرقى غزوًا أجنبيًّا فإن ذلك

يسمى ’تعصبا‘ و’كراهة للغرباء‘، ويستحق بذلك الكراهية والاحتقار. زد على ذلك أن الأوروبيين يفرضون سيادتهم على كل الآخرين ويحرِّمون عليهم الحياة والتفكير بأى طريقة خلاف طريقتهم باسم ’الحق‘ و’الحرية‘ و’العدالة‘ و’التمدين‘؟ ولا ننكر أن ’الأخلاقية‘ أمر جليل ما لم يفضّل المرء أن يستنتج أنه باستثناء حالات عظيمة بقدر ما هى نادرة لم يبق فى الغرب إلا نوعين من الناس، الغرّير الذى يأخذ تلك الكلمات الضخمة بمعناها السطحى، ويؤمن ’برسالتها فى التحضر‘، ولا ينتبه على الإطلاق إلى حضيض بربريتها المادية، والانتهازى الذى يستغل هذه الحالة العقلية للناس لإرضاء غرائزهم فى العنف والجشع. وهناك أمر واحد مؤكد فى كل الأحوال وهو أن الشرقيين لا يمثلون خطرا على أحد، ولا هم يحلمون بغزو الغرب بأية طريقةٍ كانت، ولديهم ما يشغلهم الآن فى الدفاع عن أنفسهم ضد القهر الأوروبى الذى يهدد الآن بغزو عقولهم، ومن العجب أن نرى المعتدين يتلبَّسون بمظهر المعتدى عليهم لو اقتصرنا فى القول على أقله.

وقد كان هذا التوضيح ضروريًّا حيث إن هذه أمور لابد وأن تُذكر، ولكننا نرى من قبيل تضييع الوقت أن نستطرد فيها أكثر من ذلك، حيث إن مقولة ’المدافعين عن الغرب‘ ركيكة مفككة، وزيادة على ذلك فإن خروجنا عن تحفظنا المعتاد تجاه الأمور الفردية لنذكر إنرى ماسِّى قد كان نتيجة أنه يمثل فى هذه الأحوال جزءا من العقلية المعاصرة، وهو جزء لابد وأن يؤخذ فى الحسبان فى الدراسة الحالية عن حال العالم الحديث. فكيف يتأتى لمثل هذه ’التراثاتية‘ الاصطناعية الدنيوية بأفقها الضيق وانعدام الفهم منها بل وافتعالها إلى حد ما، أن تكون مقاومة حقيقية فعالة لوجهة نظر تشاركها فى كثير من التحيزات؟ وكلتا النظرتين تعنيان الجهل نفسه بالمبادئ الحقيقية وفى كلتيهما يكمن الإنكار المتحيز نفسه لكل ما ارتفع عن حد معين من ملكات الإنسان، وعدم القدرة ذاتها على فهم وجود حضارات مختلفة، ورواج الخزعبلات ذاتها عن كلاسيكية يونانية ولاتينية. وليس لنا اهتمام فى رد الفعل المختصر هذا إلا بما كان تعبيرا عن حالة عدم الرضا بين بعض معاصرينا عن الحال الراهن، إلا أن هناك مظاهر أخرى لعدم الرضا ذاته، والتى يمكن أن تكون قادرة على المضى قدما لو أنها تلقت توجيها صحيحا، ولكن كل هذا فى الأحوال الراهنة ذو طبيعة فوضوية، ولا يزال من الصعب استقراء ما يمكن أن يتمخض عنه، إلا أن بعض التوقعات

الخاصة بتلك النقطة قد تكون ذات فائدة حيث إنها تمس مباشرة مصير هذا العالم الراهن، ويمكن فى نفس الوقت أن تكون ختاما لهذا العمل، وبحيث لا نعطى الفرصة للجهل 'الدنيوى' أن يفتح ثغرات للهجوم نتيجة الإهمال فى إلقاء اعتبارات لا يمكن تبريرها بالطرق المعتادة. ولسنا أحد الذين يعتقدون أنه يمكن الحديث عن كل الأمور بلا تمييز وخاصة حين ننتقل من نقاء المذهب إلى تطبيقاته، فلابد من التحفظ على بعض الأمور، كما أن هناك أمورا تستوجب الملاءمة ولا يجوز إغفالها، ولكن ذلك التحفظ القويم لا شأن له بالمخاوف الرعناء التى لم تنبع إلا من الجهل، وتشاكل رعب الذى 'يرى الحبل ثعبانا' حسب المثل الهندى، وسواء أُعجب الناس بذلك أم لم يعجبوا، فسنقول ما يجب أن يقال كما تسنح الظروف، ولن يمنعنا من ذلك الجهود الفردية لبعض الناس، ولا العداوة غير الواعية لغيرهم، ولا نفاد صبر أولئك الذين يهرولون محمومين فى طرائق العالم الحديث، والذين يريدون أن يعرفوا كل شيء دفعة واحدة، لن يمنعنا كل ذلك من المحافظة على أمور معينة خوفا من أن تُشهر قبل أوانها، ولكن آخر هؤلاء يستطيعون أن يُعزُّوا أنفسهم بالأمل بأن سرعة الأحداث المتزايدة سترضى رغباتهم قبل انصرام وقت طويل، وعسى ألا يأتى عليهم زمن يأسفون فيه على عدم إعداد أنفسهم بما يكفى لتلقى المعرفة التى كانوا يبحثون عنها بحماسهم فقط وليس بتميزهم الحقيقى.

9 بعض الخلاصات

لقد كان غرضنا الأول من هذا العمل هو بيان إمكانية تطبيق الحقائق والمعطيات التراثية، كى نجد أكثر الإجابات مباشرة على التساؤلات التى تتردد فى أيامنا هذه عن حال الإنسان الراهن، ونقوِّم فى نفس الوقت كل شىء تحتوى عليه الحضارة الحديثة بالاتساق مع الحقيقة، بدلا من قواعد العرف أو من ميول العواطف. ولسنا ندعى أننا قد غطينا الموضوع بأكمله، أو أننا قد عالجناه بكل تفاصيله، أو أننا قد تناولنا كافة جوانبه بلا توان، فالمبدأ الذى ألهمنا يجعل من الضرورى أن نطرح آراء هى بالضرورة تركيبية، وليست تحليلية مثل التى تلجأ إليها التعاليم 'الدنيوية'، ولكن لأن هذه الآراء تركيبية فهى تذهب إلى حد أبعد كثيرا فى اتجاه التفسير الحقيقى من أىّ تحليل كان، فالتحليل بطبيعته لا قيمة له إلا بما هو وصفىٌّ، ونعتقد أننا قلنا ما يكفى لتمكين أولئك الذين يستطيعون الفهم من استنباط بعض النتائج المضمرة فى قولنا، ويمكن أن يطمئنوا إلى أن قراءة عمل بهذا الشكل سيكون له قيمة أكبر بما لا يقاس عن قراءة شىء لا يترك لهم مجالا للتفكر والتأمل، والذى حشدنا له نقطة الانطلاق المناسبة، أى أنه أساسا سند كافٍ يرتفع عن فيضان الآراء الفردية التى لا معنى لها.

ويبقى أن نعلق باختصار على ما يمكن أن يسمى الهدف العملى من هذه الدراسة، وقد كان يمكن أن نتجاوزه أو نتجاهله لو قصرنا أنفسنا على البحث فى النظرية الميتافيزيقية الخالصة، والتى لا يعدو أى تطبيق لها عن أمر حادث وعفوى، ولكننا قد تناولنا فى هذه الدراسة بعض التطبيقات التى لها مبرر بعيدا عن أية قيمة عملية كانت، فهى النتائج

المشروعة للمبادئ، وهى التطور الطبيعى لمذهب واحد وكلٍّ تحتضن بالضرورة كل مستويات الواقع بلا استثناء بما أنه واحد وكلّى، وفى الوقت ذاته كما قلنا فى تفسير 'العلوم المقدسة' إن هذه المبادئ تشكّل أيضًا بالنسبة إلى البعض على الأقل وسائل تمهيدية تعينهم على التوجه نحو معرفة أسمى. ثم أنه ليس هناك ضرر من فحص تلك العوارض ما دمنا فى مجال التطبيقات، بشرط ألا يغيب عن ناظرنا اعتمادها على المبادئ، وأن نتفحصها لذاتها ولقيمتها، شريطة ألا يؤدى ذلك إلى أن يتبع منظورنا عن ارتباطها بالمبادئ. ويكمن الخطر الحقيقى فى هذه النقطة الأخيرة، إذ إنها الثغرة التى جعلت من انحطاط 'العلوم الدنيوية' أمرا ممكنا، ولكنها لا توجد بالنسبة إلى الذين يعلمون أن كل شىء مشتق من المبادئ، ومعتمد على الفكر البحت، وتبعا لذلك يصبح كل ما لا ينطلق منها وهما صِرفا. وكما نوهنا مرارا فإن نقطة البداية لكل شىء يجب أن تكون المعرفة، وهكذا يصبح ما كان يبدو بعيدا من وجهة النظر العملية أقوى حتى فى إطار هذا المستوى، حيث إنه لا يمكن فى هذا الصدد أو فى غيره أن يتم شىء دونها، ويكون له قيمة حقيقية أو أى شىء أكثر من مجرد غرور وعناء ظاهرى. ولكن لنعد إلى السؤال الذى يهمنا هنا فيمكن القول بأن العالم الحديث سيتوقف عن الوجود بمجرد أن يفهمه الناس على حقيقته، حيث إن له وجوداً سلبياًّ صرفاً مثل كل شىء نبع من الجهل، ومن كل ما يعنيه تحديد المعرفة، فهو يوجد فقط بإنكار التراث والحقيقة فوق الإنسانية، وهكذا فبالمعرفة يمكن أن يحدث التغير دون تدخل كارثة، وهو أمر يكاد يستحيل على أى طريق آخر، ألا يصح فى هذه الحال أن نقول إن تلك المعرفة لها حقًّا نتائج عملية تخرج عن نطاق الحسابات؟ وفى الآن نفسه ومن سوء الحظ أيضا أن معرفة كل من ارتقى إلى تلك المعرفة أمر صعب للغاية، وقد اعتزل معظمهم الحياة أكثر من ذى قبل، ولكن الحق أنه ليس عليهم أن ينعزلوا، وسوف يكفى تكوُّن صفوة قليلة العدد وقوية الأساس لإرشاد الجماهير، والتى ستطيع مقترحاتها دون حتى أن تعلم بوجودها، ولن يكون لديهم فكرة عن طريقة عملها، ألا زالت الفرصة سانحة لتأسيس مثل هذه الصفوة فى الغرب؟

ونحن لا ننوى تكرار كل ما قلناه هنا مما طرح فى موضع آخر عن الدور الذى ستضطلع به الصفوة الفكرية فى الشئون المختلفة التى تعتبر ممكنة فى مستقبل غير بعيد.

وسوف نحصر قولنا فيما يلى، أيا كان الطريق الذى سيحدث به التغير سواء أكان الانتقال من عالم إلى آخر، أم حتى إن تعلق الأمر بدورات متباينة، فلن يمكن أن يصل التغير إلى القطيعة المطلقة مع الحاضر، حيث إن هناك دائما سلسلة من السببية تربط الدورات بعضها البعض حتى لو اتخذ التغير مظهر القطيعة الكاملة. وإذا أمكن أن تتكون الصفوة التى تحدثنا عنها قبل أن يفوت الوقت لأمكنها أن تُعِد لذلك التغير حتى يحدث بأفضل الطرق الممكنة، وسوف تُختزلُ إلى الحد الأدنى كافة الاضطرابات الناشئة عن التغير لا محالة، وحتى إذا لم يتحقق ذلك الدور فهناك دور آخر أهم هو المساهمة فى الحفاظ على العناصر التى يجب أن تعيش من هذا العالم كى تستخدم فى تشكيل العالم الذى سيليه. ونعلم علم اليقين بأن تصاعدًا آخر لابد أن يأتى، ولكن لا ضرورة للانتظار كى يبلغ الهبوط مداه حتى نبدأ فى تمهيد الطريق إلى الصعود، وحتى لو كان من المستحيل منع الهبوط من أن ينتهى بكارثة. وهذا يعنى أنه مهما كانت الأحداث فإن الجهد المبذول لن يضيع سدى ولن يمكن أن يكون دون فائدة حتى لو اقتصرت على الفوائد التى من نصيب الصفوة، كما أنه لن يضيع سدى من حيث آثاره اللاحقة على الإنسانية ككل.

وها هى إذن الكيفية التى يمكن أن يُنظر بها إلى الأمور، إن الصفوة لا زالت توجد فى الحضارات الشرقية، ونسلم بأنها تتناقص بها نتيجة الاجتياح الغربى، ولكنها ستستمر فى الوجود حتى النهاية، لأن ذلك ضرورى للحفاظ على مستودع التراث وهو أبدى لا يهلك، ولضمان نقل كل ما يستحق الحفاظ عليه. أما فى الغرب من الجانب الآخر فلا وجود لصفوة، ويطرح ذلك سؤالا عما إذا كان يمكن أن تقوم صفوة قبل نهاية حقبتنا هذه، أى ما إذا كان العالم الغربى رغم انحرافه سيسهم فى الحفاظ على التراث وتداوله. وإذا كان الجواب بالنفى فسوف تكون النتيجة أن تختفى الحضارة الغربية برمتها، حيث إن افتقادها لكل أثر من الروح التراثية لن يجعلها تحتوى على عناصر ذات فائدة للمستقبل. وقد يكون للسؤال بوضعه هذا أهمية ثانوية فيما يتصل بالنتيجة النهائية، إلا أن له من وجهة نظر نسبية بعض الفوائد التى لا يجوز إغفالها بمجرد أن نأخذ فى اعتبارنا الأحوال الخاصة للزمن الذى نعيش فيه. ومن حيث المبدأ يكفى أن ندرك أن هذا العالم الغربى جزء من كلٍّ، ويبدو أنه قد انفصل عن ذلك الكل فى بداية الحقبة الحديثة، ولابد لكل الأجزاء أن تتجمع بصورة ما

فى التكامل الكلى للدورة الزمنية. ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة أى تجديد مسبق للتراث الغربى، حيث إن ذلك التراث قد يكون محفوظا من جذوره فى حالة من الاحتمال الدائم، وليس بأى شكل قد اتخذه فى فترة أو أخرى. ونحن نذكر ذلك بشكل عابر، فلو أننا حاولنا طرحها بشكل مكتمل فلابد من استعراض تفاصيل العلاقة بين التراث الأولانى والتراث التابع، ولا نملك أن نفعل ذلك هنا. وسوف يكون لذلك فى ذاته نتائج من أسوإ ما يكون على العالم الغربى، ولكن الأمور الجارية حاليا فى الغرب تثير الخوف من أن هذا ما لن يتحقق بالفعل، وكما نوهنا سلفا هناك بعض علامات تدل على أن الأمل فى حل أفضل لا يزال واردًا.

وهناك من يتزايدون فى الغرب حاليا بأكثر مما كان المرء يفترض وقد بدأوا فى رؤية ما تفتقر إليه حضارتهم، وإذا هم انتكسوا إلى أمانى غامضة وجنحوا إلى بحوث عقيمة أو حتى إذا ضلوا طريقهم تمامًا فذلك لأنهم يفتقدون المعطيات الحقيقية، والتى لا يمكن لشىء أن يحل محلها، كما أنه ليس هناك مؤسسة قادرة على تزويدهم بالإرشاد المذهبى المطلوب. ولا نشير بالطبع إلى أولئك الذين استطاعوا أن يجدوا الإرشاد فى التراث الشرقى فلم يعودوا ينتمون فكريا إلى العالم الغربى، ومثل هؤلاء لابد وأن يظلوا حالات استثنائية، ولن يمكن بحال أن يكونوا جزءا لا يتجزأ من صفوة غربية وهم فى الحقيقة امتداد للصفوة الشرقية، يمكنه أن يعمل كحلقة وصل بينها وبين النخبة الغربية حينما تتأسس ولكن الصفوة الغربية لابد أن تتأسس من واقع تعريفها بمبادرة غربية، وهنا تكمن كل الصعوبة. وهذه المبادرة يمكن أن تحدث بأحد طريقين، فإما أن يجد الغرب فى نفسه الوسائل التى تحققها بعودة مباشرة إلى تراثه، وستكون عودة كما لو كانت يقظة تلقائية وانتباها لاحتمالات كامنة، وإما أن تستطيع عناصر غربية بعينها استعادة التراث بمعونة المعرفة التى تكمن فى النظريات الشرقية، إلا أن هذا لن يكون بشكل مباشر حيث إن عليهم أن يظلوا غربيين، ولكن يجوز أن يحققوها عن طريق وساطة بين الطرفين، مثل التى أشرنا إليها سلفا. وأول هاتين الفرضيتين نادر الاحتمال، حيث إنه يعتمد على وجود نقطة انطلاق واحدة فى الغرب على الأقل تكون قد حافظت على الروح التراثية، وكما نوّهنا سلفا يبدو هذا الأمر مستحيلا، ذلك بالرغم من بعض التأكيدات على عكس ذلك والفرضية الثانية

إذن هى التى تستحق الفحص بتدقيق أكثر.

وفى هذه الحالة دون أن يكون لذلك ضرورة مطلقة يكون من الأفضل أن تتخذ الصفوة منظمة غربية كقاعدة لها، على أن تكون هذه المنظمة مستمتعة بالفعل بوجود مؤثر. ويبدو جليًّا أنه لا يوجد حاليا إلا منظمة واحدة فى الغرب لها صبغة تراثية ستكون قاعدة مناسبة للعمل وهى الكنيسة الكاثوليكية. وسيكفى العودة إلى مذهب الكنيسة دون تغيير أية مظاهر خارجية قد اتخذتها حاليا من الأشكال الدينية، والمعنى الأعمق متَضَمَّن فيها حقًّا ولكن يبدو أن ممثليها الحاليين غافلون عنه، كما أنهم لاهون عن وحدة الكنيسة الجوهرية مع الأشكال التراثية الأخرى، وهذان الأمران فى الواقع لا ينفصم أحدهما عن الآخر. ويعنى تحققهما حضارة كاثوليكية بالمعنى الحقيقى للكلمة، والذى يعبر أصوليا عن فكرة 'الكلية'، وهى حقيقة يسهل تناسيها عند الذين يستهدفون جعلها شيئا لا يزيد عن طائفة ذات شكل غربىٍّ حقٍّ دون أية صلة بالحضارات التراثية الأخرى. والحق أنه يمكن وصف الكاثوليكية فى حالها الحاضر على أن لها وجودًا افتراضيا فحسب، ذلك أنها لا تعى مبدأ الكلية وعيًا حقيقيا، ولكن من الصحيح رغم ذلك أن وجود منظمة تحمل اسمًا كهذا هو فى حد ذاته دليل على أن هناك قاعدة ممكنة لاسترداد الروح التراثية المفقودة، وبمعناها الكامل، وما يجعل منها ذلك بشكل أوفى أنها قد عملت فى القرون الوسطى على أن تكون دعامة للروح التراثية فى الغرب. وكل ما هو مطلوب إذن هو العودة إلى تأسيس ما كان موجودا قبل الانحراف الحديث مع التعديلات المناسبة لظروف حقبة زمنية مختلفة، وإذا كانت هذه الفكرة تُدهش أو تُنفِّر بعضَ الناس فذلك لأنهم بلا وعى منهم محكومون تماما بالنظرة الحديثة إلى الدرجة التى نسوا بها معنى التراث، والذى لا يحملون منه إلا القوقعة الخارجية فحسب. والسؤال المهم هو ما إذا كانت الشكليات 'اللفظية' التى هى تنويعة على المادية كما عرَّفناها سلفًا قد نجحت فى سحق الروحية تماما، أم أنها قد ألقت بها فى الظلال مؤقتا، وقد تركت احتمالا لإيقاظها مرة أخرى فى المنظمة الحالية، وذلك ما سوف يجيب عليه سياق الأحداث.

ومن المحتمل أن يؤدى مسار الأحداث عاجلا أو آجلا إلى أن يأخذ قادة الكنيسة الكاثوليكية قرارا يبدو لهم كضرورة لا يمكن تجنبها وأنهم سيكونون بعيدين عن فهم

الأهمية الفكرية الحقيقية لهذا القرار فهما صحيحا. وسيكون مما يدعو إلى الأسف إذا كان ما يقودهم إلى التأمل لا يعدو ظروفا طارئة تنبع من مجال السياسة، ويُنظر إليها بمعزلٍ عن أى مبدإ أعلى. ولكن يجب أن نقر فى الوقت ذاته أن تنمية الإمكانات الكامنة يجب أن تقدر لكل فردٍ على حدة من واقع السبل التى تقع مباشرة فى نطاق فهمه الحالى. ولهذا السبب لا نتردد فى تأكيد الضرورة الملحة لاتحاد القوى الروحية، والتى لا زالت أعمالها جلية فى العالمين الشرقى والغربى، وذلك بالنظر إلى تفاقم حالة الفوضى فى العالم، وفيما يتصل بالغرب ليس هناك إلا الكنيسة الكاثوليكية. وإذا قُدِّرَ لها أن تتصل بممثلى التراث الشرقى فسيكون ذلك خطوة مبدئية سنبتهج بها، فقد تكون نقطة بداية لما نأمل فيه شرط ألا تبعد الشقة بين هذه البداية وبين ثبوت الوهم السطحى فيما يسمى التفاهم 'الديبلوماسى'، والذى لن تستطيع أن تصل منه إلى النتائج المرجوة، وفى هذه الحالة يصبح من الضرورى الانتقال إلى ما كان من شأنه أن يأتى طبيعيا فى البداية ألا وهو اعتبار إمكانية الاتفاق على المبادئ. والشرط الوحيد الضرورى لهذا الاتفاق هو أن يعود ممثلو الغرب إلى الوعى الحقيقى بهذه المبادئ والتى لم يفقدها الشرق أبدا. ولنقل مكررا أن التفاهم الحقيقى المتبادل يمكن فقط أن يأتى من أعلى ومن الداخل، وليس من أسفل ومن الخارج، وهو ما يعنى أن يتم التفاهم فى النطاق الذى يسمى فكريا أو روحيا، وكلاهما صحيح حيث إن الكلمتين تعبران عن المعنى ذاته. ومن نقطة البداية هذه سينطلق التفاهم إلى كل المجالات الأخرى، مثلما يحدث بمجرد إعلان مبدإ أن تُستنبط كل النتائج التى ينطوى عليها، ويُحتمل أن تظهر عقبة وحيدة أمام تفاهم كهذا ألا وهى التبشيرية الغربية***Error! Bookmark not defined.*** والتى لا يمكن لها أن تعترف بوجود 'حلفاء' ليسوا 'تابعين'، أو لكى نصف الأمر بشكل أكثر دقة فإن العقبة هى عدم التفاهم الذى تعتبر هذه التبشيرية إحدى نتائجه فحسب. فهل يُقدر لهذه العقبة أن تُجتاز؟ فإذا كان الجواب بالنفى فإن على الصفوة أن تعتمد فى تأسيس ذاتها على جهود المؤهلين منها بمقدرة فكرية عالية، تعمل بصرف النظر عن أى ظروف خاصة، كما أنها تعمل بالطبع اعتمادا على الشرق، وسوف يكون عملها أكثر صعوبة على هذا المنوال، كما أن نفوذها سيستغرق وقتا أطول حتى يظهر، حيث إنها ستكون ملزمة بصنع كافة أدواتها اللازمة، بدلا من أن تجدها معدة للاستخدام كما فى الحالة الأولى، ولكننا

بعيدون عن افتراض أن هذه المصاعب يمكن أن تمنع العمل الواجب بأى شكل كان.

ولذلك نجد من الأوفق أن نصرِّح بما يلى، أن فى العالم الغربى بالفعل علامات تدل على وجود حركة لا زالت غير واضحة المعالم ولكنها قد تعمل كما يجب عليها لو أن الأمور اتخذت سمتها الطبيعى، على إعادة تأسيس الصفوة الفكرية، وما لم تتدخل جائحة من نوع ما وبسرعة أكبر من قدرتها على إتمام تطورها حتى النهاية، وليس من الضرورى بالطبع الإشارة إلى أن الكنيسة لها مصلحة فى لعب دورها فى مستقبل هذه المسألة بتأييدها وعدم التخلى عنها بحيث تنشأ مستقلة، وسوف تضطر فيما بعد إلى اتِّباعها لتحافظ على نفوذها المهدد بالاختفاء. وليس اللجوء إلى وجهة نظر رحبةٍ أو صعبةٍ ضروريا لكى نرى أن الكنيسة هى أكبر مستفيد من سلوك هو أبعد من أن يتورط فى التآمر على مستوى المذهب، وسوف يكون له فى الواقع نتيجة عكسية هى تحريرها من تخلل الروح الحديثة، والذى لن يحتاج فى نفس الوقت إجراء أى تغير ظاهرى. وسوف يكون من قبيل التناقض أن نرى الكاثوليكية المتكاملة تتحقق دون تعاون الكنيسة الكاثوليكية، والتى قد تجد نفسها فى حاجة إلى الخضوع إلى من يدافع عنها ضد مذبحة أغرب وأشد بشاعة من كل ما واجهها، وعلى يد الذين يقودونها أو على الأقل على يد الذين تسمح لهم أن يتكلموا باسمها، والذين حاولوا من أول الأمر أن يلوثوا من سمعة هذه الصفوة بأقذع الشكوك التى لا أساس لها. ومن ناحيتنا سنشعر بالأسف لو رأينا هذا يحدث فى الواقع ولكن إذا لم يصل الأمر إلى هذا فقد حان الوقت لأولئك المسئولين الذين يحملون تبعات كبرى أن يتصرفوا بأعين مفتوحة تجاه تلك الأمور، وألا يسمحوا بمحاولات سيكون لها أوخم الآثار، وسوف تؤدى إلى خطر الكبت نتيجة سوء فهم أو سوء نية بعض العاملين فيها وهو أمر سبق أن حدث بالفعل قبل الآن، وهو علامة أخرى على المدى الذى وصل إليه الاضطراب اليوم فى كل اتجاه. ولا شك أننا لن نتلقى شكرا على هذا التحذير الذى نزجيه باستقلال وعدم تحيز، ولكن هذا أمر لا يهم، وسوف نستمر فى قول ما يجب أن يقال كلما واتت الظروف. وقد كان ما سبق مجرد موجز للخلاصات التى قادتنا إليها البحوث الأخيرة فى مجال الفكر البحت. وليس هناك حاجة فى هذه اللحظة على الأقل إلى أن نسهب فى تفاصيل هذا الأمر، والحق أن هذا قليل الأهمية فى ذاته، ولكننا نؤكد أنه ليس هناك كلمة واحدة مما قيل سابقا لم

نتفكر فيها بشكلٍ كافٍ. ويجب أن يُفهم بوضوحٍ أن أية اعتراضات فلسفية ستكون بلا فائدةٍ تماما فى سياقنا هذا، فنحن نتحدث جديًّا عن أمور جادة، وليس لدينا وقت نصرفه فى المطارحات اللفظية التى لا محل لها، ولن تخدم أى غرض كان. ثم إننا ننوى أن نظل بعيدين عن كل المتناقضات والمنازعات المدرسية أو الحزبية، كما أننا نرفض على الإطلاق أن نقبل بأن نوصف بأية مصطلحات أو تعريفات غربية، حيث لا يملك الغرب اصطلاحا لما ينطبق علينا من صفات، وسواء أكان هذا باعثا على السرور أم الأسى، فهذه حقائق لن تغير شىء من موقفنا حيالها.

وهناك تحذير نوجهه إلى أولئك الذين يتمتعون بقدرة عالية على الفهم ويبدو أنهم مؤهلون لأن يصبحوا من عناصر صفوة محتملة. أنه ما من شك فى أن قوة الحداثة التى هى 'شيطانية' بكل معانى الكلمة تُجاهد بكل الطرق التى تسيطر عليها لمنع هذه الصفوة المبعثرة حاليا من أن تحقق أى توحد ضرورى بين أعضائها كى تكتسب نفوذا على العقلية العامة. ولهذا أصبح من واجب هؤلاء الذين أصبحوا واعين تماما بالهدف الذى يجب أن تتجه إليه جهودهم أن يصمدوا بحزم لكل المصاعب التى يواجهونها فى طريقهم أيا كانت، والتى تهدد بتنحيتهم عن الجهاد. وأولئك الذين لم يصلوا بعد إلى الإرشاد القويم الذى يعصمهم من الضلال بما يستحيل معه الانحراف عن طريق الحق سيظلون دائما فى خطر من الوقوع فى أعتى أنواع الانحراف وعليهم أن يتمسكوا بالتبصُّر، ونقول حتى إن ذلك التبصُّر يجب أن يبلغ حدود عدم الثقة، لأن 'الخصم' لم يُهزم بعد حتى هذه اللحظة، ويستطيع أن يتقمّص أشكالاً غير متوقعة وبينة الاختلاف. وقد يحدث أن يسقط أولئك الذين يظنون أنهم قد هربوا من المادية الحديثة فى قبضة أمور تبدو مناقضة لتلك المادية، ولكنها فى الحقيقة من نفس المرتبة، وبالنظر إلى انحراف عقل الغربيين المحدثين نوجه تحذيرا خاصا عن الجاذبية نحو الظواهر الغريبة التى قد تَعرِضُ لهم، وهذه الجاذبية هى المسئولة إلى حد كبير عن أخطاء 'الروحانية الجديدة'، ويمكن أن نتوقع أن المخاطر التى يمكن أن تُشكلها لهم هذه الروحانية، ستصل إلى درجة أسوأ، حيث إن قوى الظلام التى تغذى الفوضى الحالية تجد أن تلك الروحانية من أقوى أدواتها. ومن المحتمل أن نكون غير بعيدين عن نبوءة الكتّاب المقدس التى أشرنا إليها فى موضع آخر، لأنه سيقوم مُسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات

عظيمة وعجائب حتى يُضلوا لو أمكن المختارين أيضا[31]. والمختارون هم الصفوة بتمام معناها حسب الدلالة التى استخدمناها دوما للكلمة هم أولئك الذين 'حققوا' معرفة داخلية تحميهم من الوقوع فى الإغراء، ولكن ليس هذا هو حال من لا يملكون إلا إمكانيات المعرفة، ولهذا قال الكتاب المقدس، لأن كثيرا يُدعون وقليلين يُختارون[32]. ونحن ندخل فترة سيصعب فيها فصل الحَبِ عن العُصاف، أو أن تقوم فعلا بتحقيق ما يقول به اللاهوتيون من 'فراسة تمييز الأرواح'، وذلك نظرا للاضطراب العام الذى تفشى فى أشكال مختلفة هائلة، وأيضا للحاجة إلى المعرفة الحقة لدى من كانت مهمتهم إرشاد الباقين، والذين لا يزيدون اليوم عن كونهم قادة عميانا. وسوف نرى إلى أى حد ستنفع دقائق الجدل فى عُضُلِ المسائل فى هذه الظروف، وما إذا كانت أية فلسفةٍ مهما كان علو شأنها لديها القوة على منع 'القوى الجهنمية' من الانطلاق، وهذا أيضاً وهم يتعين على الناس أن يحترزوا منه، حيث إنه يُفترض غالبا فى خضم الجهل بماهية الفكر البحت أن مجرد المعرفة الفلسفية كفيلة بوضع كل شىء فى موضعه، وهى التى لا تزيد فى أفضل أحوالها عن ظل للمعرفة الحقة، وأنها ستحيد بالعقلية المعاصرة عن انحرافها، وبنفس الطريقة نجد هناك من يعتقد أن العلم الحديث هو وسيلة لرفعهم إلى حقائق أعلى، فى حين أن ذلك العلم ذاته قائم على إنكار تلك الحقائق. وكل هذه التوهمات لها تأثير بالغ التشعب يقود الناس إلى ضلال، ويختزل أولئك الذين يرغبون بإخلاص فى الثورة على النظرة الحديثة، حيث إنهم بعد فشلهم فى العثور على المبادئ الجوهرية قد اجتاحتهم النظرة الحديثة فى متاهة طرق مسدودة لا مهرب لهم منها.

وأولئك الذين سينجحون فى التغلب على تلك العقبات والانتصار على عدوانية الظروف المعاكسة لكل روحانية سيكونون بلا شك قلة فى العدد، ولكن لنقل مرة أخرى أن العدد لا يهم، فنحن هنا فى مجال تختلف قوانينه تماما عن قوانين المادة، ولهذا لا داعى لليأس حتى لو لم يكن هناك أمل فى تحقيق أية نتائج قبل أن ينهار العالم الحديث فى كارثة ما، فليس هذا سببا كافيا لعدم القيام بالعمل الذى تمتد حدوده فيما وراء الزمن الراهن. ويجب أن يعلم أولئك الذين تغريهم الاستكانة باليأس أن ما يتحقق فى هذا المستوى يمكن

---

31 متى 24:24.

32 متى 22:14.

أن يُفقد، وأن الاضطراب والخطأ والظلام لا تستطيع إلا أن تكسب ظاهريا وبشكل مؤقت، وأن كل اللاتوازنات الجزئية العابرة ستسهم بالضرورة فى خلق التوازن الأعظم لكل شىء كان، وأنه ليس هناك ما يمكن أن يطغى على حقيقة الحق، وديدنهم يجب أن يكون الشعار الذى كان مستخدما فيما مضى فى بعض منظمات التربية التراثية فى الغرب 'لا صوت أعلى من صوت الحق'.

كشاف المصطلحات والأعلام